ناهض حتّر

مصطفى وهبي التل (عـرار)

مختـارات

مصطفى وهبي التل (عــرار)

مختارات

رقم الإيداع لدى دائرة
المكتبة الوطنية
(٢٠٠٢/١٠/٢٤٩٧)

٨١١,٩
مخت مختارات مصطفى وهبي التل/إعداد وتقديم ناهض حتر-عمان:
الأمانة ، ٢٠٠٢ .
(١٥٦) ص .
ر.١. : ٢٠٠٢/١٠/٢٤٩٧ .
الواصفات:/الشعر العربي//الشعراء العرب//الأردن/

❖ تم إعداد بيانات الفهرسة والتصنيف الأولية من قبل دائرة المكتبة الوطنية

رقم الإجازة المتسلسل لدى دائرة المطبوعات والنشر : ٢٠٠٢/١٠/٢٣٤٦

ناهض حتّر

مصطفى وهبي التل (عـرار)

مختـارات

٢٠٠٢

مصطفى التل:
شاعر الديمقراطية الأردنية

مصطفى التل:
شاعر الديمقراطية الأردنية

«يا جيرةَ البانِ .. ليتَ البانَ ما كانا
ولا عـرفنا ـ بوادي السـير ـ خـلاّنا
وليتَ جـذوةَ ذاك الحبِّ مـا اتقـدتْ
ولا اصطلينا من الأشـواقِ.. نيـرانا»

﴿ ١ ﴾

هيـهـاتَ، يا أبا وصـفي، هيـهـات! فنحن ـ أبناء الحـراثينَ الطالعينَ من عذاباتِ الهضابِ الأردنية وصحرائها ـ وقعنا في حبِّ وطنٍ نتشـهّاه.. ولا نصلُه! ويواعـدنا .. ولا يأتي! نعـانقـه.. فيسقط عناقُنا في الفراغ!

فهل نحن، حقاً، معاً .. أم نحن أسرى العاذلين.. وبيننا جدار الأحزان؟ أهذه هضابنا وبرارينا وقبور أجدادنا وأغانينا .. أهذا ماؤنا وشمسنا وهواؤنا وزرعنا وضرعنا .. أم هو وهمنا نعيشه، واجدِيّنَ، ونغضّ الطرف حياءً؟!

مأساة الأردنيين غير مصبوغةٍ بالدّم. ربما! ولكنها مصبوغة بشقاءِ الوَلَهِ الجماعيِّ الممنوعِ ، بوطنٍ سرّي، نعرفُه ويعرفُنا، نلوذُ به ويلوذُ بنا ، لا نملكُ إلاّ الأسرار. لكن ، لا تملكُنا الأسرارُ.. لا يملكُنا غيرُ العشق.. فيا أميرَ العاشقين، وأميرَ الأسرار جميعاً، وأميري .. أخافُ وقفتي هذه على ريحاناتِكَ، لآخذَ منها القطفاتِ الأكثرَ لَذْعاً وبَوْحاً وعذاباً، في نشيدٍ واحد متشابكِ الإيقاعاتِ والقوافي، يلخّصُ الرجفةَ من فَرْطِ الصحو!

أكلُّ هذا من أجل أن أفكَّ التباساً في مديح الأردن؟!

أكلُّ هذا من أجلِ أن نقولَ إنَّ مصطفى التل اكتشفَ وطناً عذباً كالأحلام.. وتركنا وَلْهَانِينَ.. بلا توبةٍ أو رجوعٍ أو رجاء!؟

﴿ ٢ ﴾

يمثّل الأردن الحالي، القسم الأساسي من إقليم شرق الأردن الذي يتشكّل من السلسلة الجبلية المتصلة التي تفصل سواحل جنوب لبنان وفلسطين عن الصحراء. وتنحدر مرتفعات شرق الأردن بشدّة إلى الغرب، حيث تحدّها، طبيعياً، حفرة الانهدام التي تشقّ جنوب سوريا طولياً من سفوح جبل الشيخ، حيث المنابع الأولى لنهر الأردن. ومع مسار النهر ، إلى بحيرة طبريا،

فإلى مصبه في البحر الميّت؛ ثم عبر وادي عربة الممتد حتى خليج العقبة على البحر الأحمر. وإلى الشرق تنحدر المرتفعات الأردنية، تدريجياً، إلى السهول الشرقية التي تتشكّل من هضاب مختلفة الارتفاع، تنتهي عند الصحراء الرملية التي تفصل الشام عن الجزيرة العربية. ومن المعروف أنّ الحدّ بين ما هو «فلاّحي» وما هو «صحراوي» ، يقف عند نقطة الهطول المطري ٢٠٠ ملم في السنة، والتي تصبح بعدها الزراعة صعبةً.

وقد أعطت هذه الشخصية الجغرافية المميزة، طبيعياً، للإقليم الجبليّ الخصب، سيماءَه الاجتماعية والسياسية والثقافية المستقلة تاريخياً:

١. إقليم شرق الأردن جزء من سوريا. ولكنّه مستقل عنها. وهو منفتحٌ على الصحراء، ولكنه منفصل عنها؛ مما أدّى، عبر التاريخ، إلى تكوين اجتماعي فريد مستقل هو الآخر عن الحاضرة الشامية في الشمال والريف الفلسطيني في الغرب، والصحراء في الشرق والجنوب. فالاستقرار الفلاحي الوطيد هنا تشكّل من توطّن العشائر البدوية التي تحوّلت في المرتفعات إلى اتحادات مزارعين أحرار من دون أن تفقد تنظيمها العشائري وقدراتها وقيمها وتقاليدها القتالية البدوية. وذلك

لكي تكون قادرة على ردّ الغزو البدوي الآتي من الصحراء المحاذية. وهكذا، فمن وجهة نظر البدوي، فالأردني هو فلاّح؛ ومن وجهة نظر الفلسطيني أو الشامي ، فالأردني هو «بدوي». ولعلنا نتلمّس بعض أوجه هذه الظاهرة في أماكن أخرى في الداخل السوري ، ولكنها تستغرق التكوين الاجتماعي لإقليم شرق الأردن كلّه، و تتحصّن في حدوده الجغرافية الصلبة.

٢. وقد شكّل هذا الاستقلال الجغرافي ـ الاجتماعي لإقليم شرق الأردن الذي يتصلّب كلما سرنا جنوباً، أساس النزعة المحليّة للاستقلال الذاتي. فالشرق أردنيون أهل اعتصاب و(دولة)، تحفزها الجغرافيا المستقلة، والاستقرار الزراعي، والعصبية العشائرية، والتنظيم القتالي في إقليم كان يتحكّم بعقدة المواصلات بين أواسط آسيا والشام وفلسطين ومصر.

ومشاريع العصبية والدولة في شرق الأردن كانت تنهض، بلا ريب، في عمق الصحراء، وتتمركز في الصحراء المحاذية للإقليم في تكوين وسيط، نصف بدوي ـ نصف فلاحي، ولكنها تجد في المستقرات الزراعية قاعدتها الممتازة للتحقق.

٣. ويلاحظ الباحث أنّ تاريخ شرق الأردن هو، بالذات، تاريخ استقلاله السياسي المحلي، في دول مستقلة كليّاً أو تابعة إسمياً

للإمبراطوريات التي وجدت دائماً في التنظيم السياسي المحلي، الوسيلة الأمثل والأقل كلفةً لضمان أمن الطرق الدولية، بإزاء الصحراء، وبإزاء الامبراطوريات الأخرى. وربما تكون الدولة الشرق أردنية في الضخامة الحضارية لمملكة الأنباط أو في محدودية مشيخة نصف بدوية ـ نصف فلاحيّة؛ ولكن شرق الأردن، كان دائماً أرضاً تكافح من أجل استقلالها السياسي، بصفته إطاراً لا غنى عنه ، للحفاظ على المردود الزراعي من النهب، ولتحقيق الموارد من تجارة الترانزيت وتقديم خدمات الحماية والمواصلات والاتصالات للمراكز الامبراطورية.

٤. وقد أدّى الاستقلال الجغرافي ـ السياسي، وفرادة التنظيم الاجتماعي لإقليم شرق الأردن، قبل الإسلام، إلى استقلاله «القومي» والثقافي أيضاً. فحركة التوطين الدؤوبة الآتية من الجزيرة العربية، أدّت إلى تعريب الإقليم سكانياً، وإلى حد كبير لغوياً وثقافياً، منذ وقت قديم لا نستطيع تحديده بالضبط؛ ولكن انفصال الإقليم النسبي عن سوريا وسواحلها ، وتالياً عن «المراكز»، أدّى إلى احتفاظ الهجرات العربية إليه بخصوصيتها «القومية» والثقافية، وإلى تلافي الاندماج، وتالياً

الذوبان في المحيط الذي كان العرب أحد عناصره. وعلى كل حال، فقد اعترف الرومان، صراحةً، بعروبة جنوب شرق الأردن، عندما أسّسوا فيه، مع مطلع القرن الثاني الميلادي، ولاية البتراء العربية، ثم الولاية العربية.

٥. وإذا كان استقلال شرق الأردن حصناً للتعريب، فقد كان أيضاً حصناً للمسيحية في بداياتها ، حين سَكَنَ إليه المسيحيون الأوائل، هَرَباً من اضطهاد «المراكز» الإقليمية التابعة للامبراطورية. وكان، كذلك، جسراً لعبور الفتح الإسلامي . وليس مصادفة أنّ أول شهيد للإسلام في بلاد الشام، كان فروة بن عمرو الجذامي، عامل الروم على عمّان ، والذي سُجِنَ وصُلِبَ، في العام السادس للهجرة، في عفرى بفلسطين، ولكنّه لم يرتد عن اعتناقه الدين العربي. وليس مصادفة أنّ العشائر العربية المسيحية في جنوب شرق الأردن انتصرت للإسلام، عسكرياً، من دون أن تعتنق هي الدين الجديد. وعلى سبيل المثال، فإنّ إحداها (عشيرة العزيزات) لعبت دوراً بارزاً في هذا المجال، حتى أنّ النبي (ص) أعفاها من تكاليف أهل الذمة، وظلّت الحكومات الإسلامية تلتزم هذا الأمر النبوي حتى نهاية العهد العثماني (....).

❖ ❖ ❖

حكم العثمانيون سوريا منذ العام ١٥١٦، واعتبروا الإقليم الأردني كله ، لواء واحداً هو لواء «حوران» الذي شمل حوران (الصغيرة) والجولان وعجلون والبلقاء والكرك ومعان حتى حدود الحجاز. ومع ذلك، فإنّ السلطة المركزية لم تتعدَّ مركز اللواء في حوران (الصغيرة)، بينما تُرِكَ الإقليم في الداخل وشأنَه حتى العام ١٨٥١، حين بدأ العثمانيون بفرض سيطرتهم على عجلون في تلك السنة، وعلى البلقاء في العام ١٨٦٦؛ وعلى الكرك في العام ١٨٩٤. وخلال ذلك ، ظلّت البلاد تتبع والي سوريا العثماني، إسمياً؛ ولكن المُتَّحَدات الفلاحية في المرتفعات، والمتحدات البدوية في السهول الشرقية، المتصارعة في ما بينها، بقيت تحظى باستقلالها الداخلي. وقد اعترف العثمانيون، مثل الرومان والبيزنطيين، بالاستقلال الفعلي للإقليم، وأحالوا أمر تأمين طريق الحجّ الشامي والاتصالات مع الحجاز، إلى القبائل، لقاء هبة مالية سنوية ثابتة.

في إطار هذا الاستقلال، شهد القرنان السابع عشر والثامن عشر، حركة سكّانية واسعة للقبائل البدوية المتقدّمة من شمال الجزيرة العربية نحو حوران في شكل خاص، ومنها نحو الإقليم الأردني. ومع استقرار المتحدات الفلاحية في المرتفعات وتزايد

عديد السكان واتساع الرقعة الزراعية وتزاحم القبائل البدوية ونصف البدوية في السهول الشرقية والأغوار، نشأ صراع بدوي - فلاحي موضوعه السيطرة على فائض الإنتاج الزراعي؛ وبدوي - بدوي، موضوعه السيطرة على طريق الحج الشامي. ولكن الغلبة كانت لاتجاه تراجع الصحراء وانتصار الفلاحة.

وقد نبهت حملة إبراهيم باشا، ابن حاكم مصر القوي محمد علي، على بلاد الشام (١٨٣١ - ١٨٤٠) السلطات العثمانية إلى (أ) قوّة المتحدات الفلاحية في مرتفعات شرق الأردن، (ب) تمتعها بفائض إنتاج ملائم لتمويل إدارة مركزية في الإقليم؛ (ج) إمكانية زيادة الرقعة الزراعية؛ (د) إمكانية توطين البدو، ووضع حد لسيطرة القبائل البدوية على طريق الحج. وهذا ماحدا بالعثمانيين إلى تأسيس إدارات محلية في إربد ثم في السلط ثم في الكرك. وقد اشتملت هذه الإدارات على خلق الأطر الأمنية والإدارية والتمثيلية للتسيير المحلي، وتنشيط مشاريع البنية التحتية والخدمية، ماساهم ، جدّياً، في الدفع باتجاه نهضة زراعية، أحدثها، بالأساس ، الطَلَبُ المتنامي على السلع الزراعية المنتجة محليّاً (ولا سيما الحبوب والمواشي) في الأسواق المجاورة، ومنها، جزئياً ، إلى أوروبا.

وفي هذا السياق بالذات، تصاعدت وتيرة الاستقرار والتحضّر، ونشأت (أو جُدِّدَتْ) مئات البلدات والقرى الزراعية ، وزادت المساحات المزروعة، بل وأُنشِئَتْ مشاريع زراعية كبيرة مدعومة من «مصرف التسليف الزراعي» الذي أقامه العثمانيون لهذه الغاية بالأساس . وربما كانت الخطوة الحاسمة في كل ذلك، هي قيام السلطات بتسجيل الأراضي والعقارات، وإقرار الواجهات العشائرية، ما شكّل إطاراً قانونياً للمُلْكيّات واستخدام الأراضي وإطلاق حركة الاستثمار في الزراعة، ليس بالنسبة للعشائر الفلاحية فقط، وإنما بالنسبة للعشائر نصف البدوية أيضاً. وقد جذبت هذه العملية مهاجرين من فلسطين والشام، للاستثمار أو العمل في قطاع الخدمات التجارية والحرفية، والذي أصبح ضرورياً في البلدات الجديدة. وهذا ، بالإضافة إلى المهاجرين الشركس الذين جلبتهم الحكومة العثمانية، وأقطعتهم أراضي زراعية، في إطار ميلها إلى تشجيع الاستقرار والعمل الزراعي وتشكيل مستوطنات حليفة.

إن هذه العملية، برمتها ، هي التي شكّلت الملامح الأساسية للبنية الاجتماعية الأردنية الحديثة التي استقرّت مع مطلع القرن العشرين، وتشكّلت صورتها التي طبعت، في النهاية،

الأردن الحديث، بطابعها.

ولقد لعبت شبكة التلغراف والخط الحديدي الحجازي (١٩٠٨) دوراً هاماً في ربط أجزاء البلاد ، والتي كانت قد تعمّقت العلاقات الداخلية فيها بفضل السوق الداخلية الناشطة ومراكزها الحضرية، وأهمها مدينة السلط؛ وذلك، في الوقت الذي بدأ العثمانيون يكتشفون فيه أهمية عمّان، بوصفها مركزاً إدارياً وعسكرياً على مستوى البلاد. وجدير بالاهتمام بالفعل ذلك المشروع العثماني الموعود، لإنشاء ولاية باسم «معمورة الحميدية»، في الأراضي التي تشكّل الأردن الحالي، على أن تكون مرتبطة مباشرة بالباب العالي ، وعاصمتها الإدارية، عمّان. فهذا المشروع، بالرغم من أنّه لم ير النور، إلاّ أنّه يعطينا إشارة قويّة على حجم ونوعية التحوّلات الاقتصادية والاجتماعية السياسية التي شهدها شرق الأردن، خلال القرن التاسع عشر، وأدّت إلى نشوء المعطيات اللازمة لقيام كيان وطني في البلاد.

وقد كانت هذه المعطيات في صلب تفكير الزعامات الوطنية التي طالبت الانكليز، في اجتماعها الشهير في أم قيس ١٩٢٠، بإنشاء «حكومة عربية وطنية مستقلة مركبة من لوائي الكرك والسلط وقضائي عجلون وجرش» (أراضي الأردن الحالي)

على الشروط التالية:

أ. أن يكون لهذه الحكومة أمير عربي.

ب. أن يكون لهذه الحكومة مجلس عام لوحدة البلاد وسنّ القوانين وإدارة الشؤون الداخلية وتنظيم الميزانية.

جـ. أن لا يكون لهذه الحكومة أدنى علاقة بحكومة فلسطين.

د. أن تمنع المهاجرة الصهيونية بتاتاً إلى داخلية هذه الحكومة، ويمنع بيع الأراضي لهم.

هـ. أن يكون لهذه الحكومة جيش وطني.

و. إعفاء المجرمين السياسيين داخل المنطقة، وعدم تسليم أي مجرم سياسي يلجأ إليها.

ز. الحكومة الوطنية هي التي لها الحق وحدها بتجريد السلاح أو بقائه بأيدي الأهلين.

حـ. حرية التجارة بين هذه الحكومة وما جاورها من حكومات، وإعطاؤنا حقنا من واردات الجمارك في سوريا.

ط. (الحصول على حق إدارة الخط الحديدي الحجازي).

ي. أن يكون شعار هذه الحكومة الآن العلم السوري ذا النجمة.

ك. أن تكون حدود المنطقة غرباً نهر الشريعة (الأردن).»

س. الحكومة البريطانية تتعهّد بصد الفرنسيين...

وقد أجاب الجانب البريطاني على هذه المطالب ، كتابةً ، وسُمّيت الوثيقتان، «معاهدة أم قيس». ونتتقي من الإجابات البريطانية، أبرزها:

- «نوافق على تشكيل حكومة عربية مستقلة تحت انتداب حكومة بريطانيا ...».

- «لا علاقة البتة لحكومة هذه البلاد بحكومة فلسطين...».

- «منع الهجرة الصهيونية ومنع بيع الأراضي لليهود عائد لحكومة البلاد».

- «تقديم الحكومة البريطانية الأسلحة مقابل ثمن...».

❖ ❖ ❖

وتشكّلت بالفعل، ثلاث حكومات محلية في إربد والسلط والكرك . وكان رئيس الأولى، اللواء علي خُلْقي الشرايري، ناشطاً في السعي إلى دمج هذه الحكومات في ما أسماه «الرابطة المدنية للعش الصغير،» حين قدم الأمير عبدالله إلى معان، فعمّان، في حملة سياسية تحت شعار تحرير سوريا. وقد جمع حوله قسماً من النخبة السياسية السورية والفلسطينية واللبنانية والعراقية والحجازية، ممن ساهموا في تأسيس

المملكة السورية، وقد طلب الأمير، عند لقائه مع وزير المستعمرات البريطاني ونستون تشرشل في القدس (٢٤ آذار العام ١٩٢١) مملكةً تضم شرق الأردن وفلسطين، على أن يسمح لليهود بحكمٍ ذاتي فيها. ولكنّه تنازل عن هذا الطلب، وقبل عرض تشرشل بإقامة إدارة في شرق الأردن، تتعهّد بحماية الحدود الأردنية ـ الفلسطينية ، والأردنية ـ السورية، وفتح الطريق الصحراوي إلى العراق ، وتأمينه.

لم يحظ اتفاق عبدالله ـ تشرشل بترحيب زعماء العشائر والنخبة السياسية في البلاد. والأمر أنّه نشأت معارضة أردنية قوية للإدارة الجديدة تحت شعار «الأردن للأردنيين.» وكادت انتفاضة حلف البلقاء المسلّحة عام ١٩٢٣ ، أن تطيح بالإدارة، بين انتفاضات وحركات عصيان أخرى ، جرى قمعها جميعاً، بمساعدة القوات الإنكليزية.

وكان مصطفى التل (عرار) * أحد المتهمين الرئيسيين بتدبير انتفاضة حلف البلقاء ، فعُزِلَ واعتُقِلَ في المنفى الحجازي.

---

* لقب الشاعر اتخذه تيمّناً بالشاعر الأموي عرار بن عمرو بن شأس الأسدي. وكان الأخير، مضطَهداً، ضاوي الجسم، زري الهيئة، إلاّ أنّه كان فصيحاً وذكياً ومقداماً.

ولطالما تغنّى، في أشعاره اللاحقة، بألم شهداء تلك الانتفاضة، الشيخ صايل الشهوان.

وبعد سنوات من الانتفاضات والتمرّدات الفاشلة، وحّدت المعارضة الأردنية صفوفها في مواجهة المعاهدة الأردنية - البريطانية لعام ١٩٢٨؛ وعقدت ، في ٢٥ تموز من السنة نفسها، مؤتمراً وطنياً حضره ممثلون موكّلون يمثّلون أنحاء البلاد بمجملها ، أقر ميثاقاً وطنياً من أبرز بنوده:

«إمارة شرق الأردن دولة عربية مستقلة ذات سيادة بحدودها الطبيعية المعروفة»؛

«تُدار بلاد شرق الأردن بحكومة دستورية مستقلة برئاسة صاحب السمو الملكي الأمير عبدالله وأعقابه من بعده»؛

«لا تعترف بلاد شرق الأردن بمبدأ الانتداب إلاّ كمساعدة فنيّة نزيهة...»

«(...) وترفض وعد بلفور ...»؛

«وكل صلة بحكومة فلسطين»؛

«.. وكل انتخاب للنيابة العامة يقع في شرق الأردن على غير قواعد التمثيل الصحيح ،وعلى أساس عدم مسؤولية الحكومة أمام المجلس النيابي لا يعتبر ممثلاً لإرادة الأمة وسيادتها القومية...».

«ترفض البلاد كل تجنيد لا يكون صادراً عن حكومة دستورية...»

«وترفض تحمل نفقات أي قوّة احتلالية أجنبية».

فـ «موارد شرق الأردن «كافية لقيام إدارة دستورية صالحة فيها، أما الإعانة المالية التي تدفعها الحكومة البريطانية (٠) فهي نفقات ضرورية لخطوط المواصلات الامبراطورية والقوى العسكرية المعدّة لخدمة المصالح البريطانية ليس إلاّ. لذلك فإنّ هذه الإعانة المالية التي يضاف إليها اليوم قسم من واردات البلاد لتحقيق غايات لا مصلحة لشرق الأردن فيها لا تخوّل بريطانيا حق الإشراف على مالية البلاد...».

يعبّر الميثاق الوطني الأردني لعام ١٩٢٨، ومن حيث الجوهر، عن مشروع مساومة تاريخية، تتضمن الاعتراف بحكم الأمير و «أعقابه من بعده» بشرط التزامه (والتزامهم بالطبع) بالحكم الدستوري، والاستقلال، والالتزام «بمصالح» شرق الأردن.

وعلى رغم الصراع السياسي الذي شهدته البلاد، أواخر العشرينات وأوائل الثلاثينات، بين المعارضة الوطنية من جهة، والإدارة والانكليز من جهة أخرى، فقد كان «الميثاق الوطني» نقطة التقت عندها المعارضة والقصر في مشروع مشترك هو

مشروع الدولة الوطنية الذي ظلّ ، منذ ذاك ، إطاراً للصراع بين نهجين:

النهج الأول، وتمثله نخبة الحكم ـ ومعظمها من أصول عربية غير أردنية ـ وتستند إلى قوة الإنكليز، لا إلى القوى الاجتماعية المحلية. وترى الأولوية المطلقة في توجيه موارد البلاد المالية لمصلحة الإدارة الناشئة، وتوطيدها، وتعزيز دورها الإقليمي، وتحفيز نخب تجارية ـ من الطينة ذاتها ـ ومنحها الامتيازات والاحتكارات، وحمايتها بقوّة القانون. وقد أدّى كل ذلك، إلى نشوء نخبة بيروقراطية ـ تجارية حاكمة، موئلها العاصمة الجديدة: عمّان، وتتبنى اتجاهات معادية لشعب الأردن، فتتشدّد في إخضاع حركة حياة البدو لمتطلبات الإدارة ، ولما قامت به هذه الأخيرة من تسويات إقليمية أضرّت بالحدود الأردنية ـ وخصوصاً مع السعودية ـ ما حدّ من حركة البدو الطبيعية. وكذلك، الاتجاه إلى تحصيل ضرائب متصاعدة مرهقة من الفلاحين، وقمع كل بادرات التمرّد بقسوة بالغة. وفي الوقت نفسه، إهمال الخدمات العامة الموجهة للأغلبية (الطبابة، التعليم...) أو إنشاء البنى التحتية اللازمة لتطور الزراعة أو توفير فرص العمل لاستيعاب البطالة الناجمة عن انهيار حياة

البدو التقليدية.. إلخ.

وهذه المصالح والاتجاهات هي التي كانت وراء نشوء «العلم الرسمي» ـ الذي يسخر مصطفى التل (عرار) منه، ويجلده بوصفه «أزياء» قَوْمَويَّة وإسلامويّة ومحافظة، تعكس ، في الحقيقة، نشوء ثقافة الحكم .. ضد ثقافة الشعب.

والنهج الثاني ، وتمثّله نخبة المثقفين الوطنيين ـ ومعظمهم من أبناء الفلاحين والمحافظات ـ ويستند هؤلاء إلى قوى اجتماعية متجذّرة؛ وإلى التحالف المنتظر بالطبع، مع شيوخ العشائر . وقد شكّل هؤلاء جميعاً ما عُرف ، في النصف الأول من القرن العشرين، بالمعارضة الأردنية. وكانت مطالبها الأساسية هي الآتية:

ـ إضفاء الطابع الوطني الأردني على الإمارة، والتخلّي عن مطامحها الإقليمية ودورها الإقليمي؛

ـ أردنة الإدارة، ومقرطتها: ما يعني إدارة البلاد من قبل أبنائها، وبالوسائل الديمقراطية؛

ـ توجيه الموارد المالية نحو إنشاء البنى التحتية والخدمات ولتعزيز الإنتاج الفلاحي.

وعلى المستوى الثقافي ، واجهت « المعارضةُ الأردنيةُ»، «العلمَ

الرسميّ»، بإبراز الهوية الأردنية، والتقاليد والقيم المحلية.

﴿ ٣ ﴾

كان مصطفى التل (عرار) أحد المشاركين المباشرين في النشاطات السياسية للمعارضة الأردنية ـ فاعتُقِل وسُجنَ ونُفيَ وطُرِدَ من وظيفته مراراً ـ إلاّ أن أهميته الأساسية تنبع من أنّه كان هو الذي صاغ الردّ الثقافي المعارِض.. في مجابهة «العلم الرسمي»، فحفظ لنا، بذلك، وإلى الأبد، التراثَ الروحيَّ الخصب للشعب الكادح الذي تشكّل وجدانه الوطني الخاص ، على إيقاع الحياة في الهضاب الأردنية وصحرائها، في نزعات أصيلة نحو المساواتيّة الاجتماعية ـ (والنفور المتجذّر من كل أشكال التفاوت الطبقي والامتيازات؛) وتقديس الحريّة؛ والجماعيّة والإخاء؛ والتسامح الديني والإثني؛ والتسامح الأخلاقي ؛ والكرم ؛ والإعتزاز بالذات وحفظ الكرامة الشخصيّة؛ والحياء؛ وتقديس المرأة. وكذلك ، النظرة النقديّة؛ والسخرية القاسية من أنماط السلوك الاجتماعي الخارجة عن القيم الجماعيّة؛ والفروسيّة ـ تلافي العنف والإيثار والاقتصاد في استخدام القوّة، والميل إلى المصالحة على أساس «الحد

المقبول» الذي يصون مصالح الأطراف وكراماتهم ـ وسنرى هذه النزعات ـ التي أسميها ، مجتمعةً، بالديمقراطية الأردنية ـ تتجسّد عند مصطفى التل .. شعراً.

﴿ ٤ ﴾

لم يحز شاعر أردني آخر هذا اللقب المجيد : شاعر الأردن.

وهو لقب يحمل معنيين:

أولهما أنّ مصطفى التل (عرار) هو أهمّ شاعر أردني. وهذا معنى موقوت، بالطبع، بزمانه ـ النصف الأول من القرن العشرين ـ إذ، في النصف الثاني من ذلك القرن، شهد الأدب الأردني، ذرىً لم يبلغها (عرار.)

وثانيهما أنّه الشاعر الذي أوقف حياته وإبداعه على استلهام البلد وناسه ووجدانه وتراثه، والنضال من أجل استقلاله وتحرّره الاجتماعي، والتجديد التقدّمي لجمالات روحه وقيمه وحياة كادحيه. وهذا معنىً خالد لا يفوّته الزمان. وهنا ، يصطف (عرار) إلى جانب والت ويتمان، شاعر الولايات المتحدة الأميركية؛ وفردريكو غارسيا لوركا ، شاعر إسبانيا؛ وبابلو نيرودا ، شاعر التشيلي.

ومما له دلالته العميقة أنّ نلاحظ أنّ هؤلاء الشعراء الأربعة الديمقراطيين الكبار، قد احتفوا، جميعاً بالمكان الوطني وجمالاته، وبالتراثِ الشعبيّ، وبالمرأةِ، وبالكادحين؛ فكأنّ هذه هي مادةُ الشعر الديمقراطي، وعُدَّتُه. وهي كذلك . وبالنسبة لإثنين منهم (عرار ولوركا) فقد لوّنا أشعارهما بالألوان الزاهية للفجر (النور) الذين تمثّل حياتهم الفانتازية، خلاصة الأحلام الشعرية بحياةٍ تسودُها المساواتيّة والإخاء والمتعة والحريّة.

إنّ الأدباء والشعراء الأردنيين الذين استطاعوا أن يقدّموا شيئاً مختلفاً ولافتاً إلى الأدب العربي ، بعد (عرار،) هم أولئك الذين قدّموا أنفسهم كأردنيين؛ وعالجوا، من وجهات نظر متعددة، قضيَّةَ الأردن وخصوصيتَه الاجتماعية ـ الثقافية؛ أيّ هم أولئك الذين تمثّلوا الروح العرارية، في عذابها التراجيدي على التخوم الخصبة للصراع بين صورة البلد وواقعه.. هذا البلد«المنبوذ» الذي يشكّك القوميون الزائفون بأصالته الكيانية.

وعندي أنّ الأديب الأردني الكبير غالب هلسا، لم يترك توقيعه على أزهى صفحات الأدب العربي ـ وربما العالمي ـ إلاّ بوساطة روايته الفذّة : «سلطانة» .. التي تشكّل استمراراً وتجاوزاً أدبياً لـ (عرار) . ففي «سلطانة» ، وفي سياقٍ تحتشدُ

فيه الأمكنةُ والأزمنةُ والشخصياتُ الأردنية، بكل حضورها الحرّيف ورؤاها وقيمها، ينهض معمارُ الرواية على ذلك الصراع التراجيدي الذي يعيشه بطلُها بين صورتين للأردن، أولاهما بطولية مستمدة من أعماق البلد وجذوة قلبه، وتمثّلها امرأة هي (آمنة) الأم الثانية ـ الرمزية ـ للبطل الروائي؛ ومعها نلتقي بالأنثى المطلقة التي تتجسّد فيها القيم الجماعية للشعب من خلال نظرةٍ جماليةٍ صافيةٍ إلى العالم؛ وثانيهما واقعية، مستمدة مما صار إليه الأردن الحديث الكولونيالي، وتمثّلها أيضاً امرأة هي (سلطانة). فيها ـ ولا ريب ـ شيءٌ من آمنة؛ إلاّ أنها تشكّل الأنموذج المضاد المتكوّن من النزعتين الميركنتيلية والبراجماتية، وما تتطلبانه من عبوديّةِ الجسد والنفس، ضد حريتهما الشفّافة عند (آمنة.) ويظل قارئ هلسا مشدوداً، طوالَ الوقت، على حبل التضادّ بين رؤيتين للعالم تتصارعان في جسدانيةٍ أدبيّةٍ تسعى، بإلحاح ، لاستلهام المحليّ بكل جوارحه.

لقد تابع هلسا، رائدَه (عرار) في الإلحاح على أدبية التراجيديا الأردنية؛ على الضد من النزعات القوموية العَدَمية إلى تصوير الأردن كملهاةٍ تفتقرُ إلى الأَصالة.

﴿ ٥ ﴾

ولد مصطفى التل (عرار) في العام ١٨٩٩. وبدأ يكتب الشعر في سن مبكّرة ـ وربما في العام ١٩١٥ ـ فكان، عند قيام الإمارة، العام ١٩٢١، شاعراً مكتمل الأدوات. فهل كان ذلك يعني أي شيء خاص أو غير اعتيادي ؟! ما أكثر الشعراء! ولكن مصطفى التل كان عبقرياً في اكتشاف الشعر في الحياة، لا في نظمه.. بل كان «النظمُ» يأتي، عنده، في الدرجة الثانية، مجاهِداً لكي تسعفُه موهبتُه الفرديةُ المحدودةُ، على استيعابِ كلّ هذا الدّفْقِ الأدبيّ المتفجّر، كالنهرِ، من التراجيديا الأردنيةِ الناشئة عن اللقاء الدامي مع الكولنيالية المضاعفة في صبغتها القوموية. انّ عبقرية (عرار) تبدأ وتنتهي عند عبقريّة الأردن ـ التي ما تزال تحتاجُ إلى مواهبَ أدبية كبيرة لاستنطاقها ـ و(عرار،) على كل حال، ذهب إلى الأقصى، مُتّحمّلاً ـ طوالَ حياته القصيرة الصاخبة (توفي العام ١٩٤٩ عن خمسين عاماً) ـ عبئاً مُضاعَفاً ثلاثَ مراتٍ، لتجربةٍ أرادتْ أن تنهضَ ـ في الآن نفسه ـ بالآتي:

١. المشاركة الشخصية المباشرة في النضال السياسي المعارِض، والكتابة السياسية؛ ومن ثم، وبالضرورة، استخدام

الشعر كسلاح سياسي. وهو استخدامٌ تأباه حساسيّةُ الشاعر الذي ظلّ يلحّ على شعريّة قصيدته السياسية من حيث المعنى أولاً، والمبنى ثانياً؛

٢. بناء الصورة الأدبية للوطن الأردني وروحه وتراثه ورموزه وشخصياته وإيقاعاته ولهجاته. وهي مهمة تنهض بها، عادةً، حركةٌ أدبيةٌ لا شاعرٌ فردٌ. وقد استطاع (عرار) على كل حال، أن ينهلَ من أدبيّةِ الحياةِ الأردنية، بل واستخدام «العناصر الأردنية»، في شعره، سياسياً، ليقُضَّ ، بمديحهِ التقديسيّ للجغرافيا الأردنية وللأردنيين، مضاجعَ النخبةِ القوموية المسيطرة، والتي تستمد سلطاتها من الكولونيالية؛ وتأتلفُ مصالحُها مع تكوينِها ، في خطابٍ يُلغي الهويّةَ المحليةَ، ويشيحُ عن مصالحِ البلد وجمالياتِه؛ ويشيعُ، ضدَّ الروحِ الأردنية، الفصحى المتقعّرةَ ، والتعصُّبَ الدينيَّ والإثنيّ ، ومعاداةَ المرأة، والاستبدادَ والميركنتيليةَ، وتقديسَ المُلْكيةِ ، والامتيازات.

٣. بناء التجربة الشعرية الخاصة، المتواصلة، خصوصاً ،مع التجربةِ الخياميّة، ومع النظرةِ الأبيقوريّة إلى العالم. وعندي أنّه لولا انفجارُ القضيةِ الوطنية الاجتماعية الأردنية في قلبه، لكان (عرار) شاعراً خيّامياً بامتياز. وهذا ما كان يريدُه هو بقوة، ولم

يتنكّر له، إلاّ أنّه استخدَمه، (أ)جمالياً ، فأدمجه بجماليات الديمقراطية الأردنية، واعتبره واحداً من عناصرها ، و (ب) سياسياً، ليجلدَ ـ بخمريّاتِه وغزليّاتِه ـ الخطابَ الرسميَّ للنخبةِ القوموية ، وتعصُّبها الدينيَّ و«الأخلاقي».

وفي هذه السياقاتِ الثلاثة كلّها ، يقع مديحُه المُلْهمُ للفجر ـ موضوعَه الأدبيَّ الأثيرَ ـ ففي حياةِ هؤلاء، وَجَد الشاعرُ ضالَّتَهُ، من أجلِ تصويرٍ قَصْوَوي لرؤاه السياسيةِ والاجتماعيةِ والثقافيةِ والأخلاقية.

وفي شعر (عرار) سوف نلتقي، مراراً، بشخصيتين أدبيتين هما الهَبّر ـ شيخ الغجر، وعبّود النجار ـ شيخ الخطاب الديني. وهما شخصيتان، أخذتهما القصيدة العرارية من الحياة، للتعبير بتصويرهما ومخاطَبتِهما ـ عن هواجسها الكبرى.

﴿ ٦ ﴾

القصيدة العرارية نسيجٌ فريدٌ من الإيقاعاتِ والرؤى والعواطف والأفكارِ والألفاظِ والأمكنةِ والناس، يربطها سياقٌ أساسيٌ هو سياقُ الصراعِ الوطني الاجتماعي في أردنّ العشرينات والثلاثيناتِ وبعضِ الأربعينات.

وإذا كانت القصيدةُ العراريةُ ذاتَ مضمونٍ خيّامي وأبيقوري صريحٍ من حيث أنها ترى في تصعيد الصحو، بالخمرة وبالعشقِ، المعنى الأساسيَّ للحياة، فهي لا ترى هذه الحياة إلاّ في الوطن، وبالعلاقة مع وجدانه ولغته وقضاياه؛ بل إننا نَجِدُ في تقديس القصيدةِ العرارية للموطن ـ باعتباره مَحَلاً وجزءاً ، لا يمكن اختصاره ، من الحياةِ البوهيميّةِ المُشْتَهاة ـ ظلالاً لتقديسِ الأردنيّ لموطنِه (طوطميّة المكان) حيث ترتسم ، بين المكانِ وأهلِه، علاقةٌ حسيّةٌ ـ روحيةٌ لا تنفصمُ، فيتبادلانِ الأسماءَ والحيوات ؛ بحيث أنّ كلَّ ما يحدثُ، خارجَ المكان، يغدو بلا معنى، وبحيث يظلّ المكان، بكل وجدانِه الاجتماعي والثقافي، حاضراً في وعي «المغترب».

ومن الوَلَهِ بالمكان إلى الوَلَهِ بالأنثى، نكتشف ، عند عرار، إخلاصَه لتقديسِ الأردنيين للمرأة (طوطميّة الأنثى) في علاقتها بالمكان، وبالحياةِ، وبالعصبيّة. وكذلك، إخلاصَه لنزوعاتهم الديمقراطية التقليدية: المساواتيّة ضد الامتيازات ، والحريّة ضد الاستبداد، والتسامح الديني والأخلاقي ضد كل أشكال التعصّب.

﴿ ٧ ﴾

لم أعرف مصطفى وهبي التل (عرار) من الكتب أو المدرسة، بل من الناس.

وكان ذلك يُبْهجُني، في صبايَ، كأنني أُطاردُ غيمةً أو أواعدُ نجمةً بعيدةً على سطح البيت، فلا تأتي، ولكن ترسلُ بريقَها، مثلَ خيطٍ من فضّةٍ ، إلى قلبٍ مسحورٍ بالكلمات. وكان ثمَّةَ، نحو العام ١٩٧١ ، عشّاقٌ يغازلونَ حبيباتِهم بمقاطعَ من شعره، ومتمرّدونَ يتسلّحون بهجائياته ، ومعتزّونَ بالنَسَبِ الأردنيِّ يعزفونَ موسيقاه تحتَ نافذةِ الحريّة، مُتهلّلينَ بالعودةِ إلى الذاتِ الوطنيةِ، قبلَ أن تذويَ لحظةُ الوعي، وتنطفيءَ مع اشتعالِ أسعار النفط، حين بدأ الشبابُ يطاردون الدنانيرَ ، بدلاً من المحبّات والأغاني.

كان مصطفى التل، بالرغم من أنّه فصيحٌ ، يجاور، وحدَه ، القصائدَ الشعبيةَ المتداولةَ بين الأردنيين. وقد لاحظتُ أنّ العامّةَ لم تكن تخافُ من شعره أو تتهيَّبُ إنشادَه، كما تفعل ـ عادةً ـ مع الشعر الفصيح؛ بل تتجرأُ عليه وتحوّرَه، وتَنْطِقُه بين العاميةِ والفصحى. ولطالما أحسستُ بأنّ لغةَ (عرار) هي ، بالذات ، لغةُ الأردنيين، وَسَطاً بين اللهجات، ونهجاً ثالثاً بين الكتب والحياة؛

كأنّها ، على السليقةِ، أعطتهم القدرةَ على التعبير المُفْعَم بالحيويةِ، بمقاطع شعرية ذات إيقاع مستمد من موسيقى الشعب.. لا من بحور الخليل بن أحمد الفراهيدي!

لقد أعطى (عرار) للأردنيين، القدرة على القول في الحبّ، والسياسة، والوطنية، واللوعة، والاشتياق، والتحسّر، والسخرية، والغضب، والنقد الاجتماعي، وتمجيد القرى والمدن والأوابد ، وتأكيد القيم الأردنية في المساواتيّة والحريّة والإباء... وهذه «المختارات» ـ وهي محاولةٌ لاستعادة (عرار) من «العلم الرسمي» إلى أيدي العاشقين ـ لا تلتزمُ سوى بمقتضياتِ استعادةِ اللقاءِ بين الشاعرِ وناسهِ.

❖ ❖ ❖

قرأنا ديوان (عرار)* من القلب إلى القلب؛ وأخذنا منه جمراتهِ، في نشيدٍ واحدٍ مُتّصلٍ من المقطوعات والأبيات والقصائد. وقد حذفنا العناوين والتواريخ. ووجدنا في الترتيب الهجائي للقوافي ـ الذي صنعه الدكتور زياد الزعبي ـ ميزةً

---

* عشيات وادي اليابس ، ديوان مصطفى وهبي التل (عرار؛) جمع وتحقيق وتقديم : الدكتور زياد صالح الزعبي. المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ـ عمّان ، الطبعة الثانية ١٩٩٨.

إيقاعيةً، فاعتَمَدْناه .

❖ ❖ ❖

..إنّه، إذاً، نشيدٌ من (عرار) تشكّل في حَوْمَةِ الوجد. وليس له أيُّ صلةٍ ، من قريبٍ أو بعيدٍ، «بالعلمِ الرسميِّ» أو بضوابطِه . وهدفُه الوحيدُ أن يستخدمَه العاشقونَ في يومياتهم . ولذلك، طَبَعْناه في قياسٍ ملائمٍ لجيبِ الشابّ - على جهةِ القلب - ولحقيبةِ الصبيّة!

ناهض حتّر

عمّان في ٢٠٠٢/٧/٣٠

مختارات

﴿ ١ ﴾

يا شيخُ! ما العلمُ؟ حَسْبُ المرءِ معرفَةٌ
أنَّ الشفاهَ ـ بوادي السِّيرِ ـ لمياءُ

وأنّ للجهلِ فضلاً لستَ صاحَبهُ
بالعلمِ؛ والعلمُ في عمّانَ أزياءُ

مؤمّلَ الخيرِ من كفٍ ترنّحُنا
صفعاً، حنانيكَ .. إنَّ القومَ أعداءُ

لو أنّ «بُرْنيطةً» كانت عمامتُكم
لوظّفوها، ولم يخطفْكَ إثراءُ

والعلمُ كالجهلِ، إنّي قَدْ شططتُ، وقَدْ
نسيتُ أنْ في فمي مِن راتبي ماءُ

يا أزمةً أنطَقَتْني، اليومَ ،جَمْجَمَةً
لا تشمَتي، فالحِجا: شَدٌّ .. وإرخاءُ
لا بُدَّ للحُرِّ من يومٍ يقولُ بِهِ:
«شِرْتي»[1] وراتِبُكُم والعزلُ .. أسواءُ

لا تحسَبِ الجرحَ فيمَنْ لا يضجُّ أسىً،
يا «كُوْكْسُ»[2]، مندملاً، فالضيمُ نكّاءُ
والحقُّ، لا بُدَّ من إشراقِ طلعتِهِ
مهما استطالتْ على أهليهِ ظَلْماءُ

وقوّةُ الضعفِ إنْ جاشتْ مراجلُها
تنمّرتْ نعجةٌ، واستأسدتْ شاءُ

﴿ ٢ ﴾

إذا داعبَهُ الحُبُّ
فماذا يفعلُ القَلْبُ؟
وهَلْ حرجٌ عليهِ وإنْ
يكنْ قد شاخَ، أنْ يصبو؟
وأن يخفقَ للغزلانِ...
ما مرَّ بِهِ السِّربُ؟

ألا يا أيُّها الخفّاقُ...

لي طِرْدُ الهوى دَأْبُ

وهَب سنّي على الخمسين..

قد أَرْبَتْ، ولم تَرْبُ

أأُغضي إنْ مُكَحَّلةً،

إليَّ بها، رمى الدَّربُ؟

﴿ ٣ ﴾

أهكذا حتى ولا مرحبا!
للهِ أشكو قلبَكِ القُلَّبَا
أهكذا حتى ولا نظرةٌ!!
أَلمحُ فيها وَمْضَ شوقٍ خَبا
أهكذا حتى ولا لفتةٌ!
أنسمُ منها عَرْفَكِ الطّيِّبا

ناشدتُكِ اللّهَ وأيامَنا
ونشوةَ الحبِّ بوادي الصِّبا
وغُصَّةَ الذكرى وآلامَها
وحرمةَ الماضي وما غيَّبا
لا تسأليني: أيُّ سرٍّ لَقدْ
أحالَ عُمري خاطراً مُرعِبا

عمّانُ ضاقتْ بي، وقد جِئْتُكم
أنتجعُ الآمالَ في مأدبا

* * *

بالسلطِ غزلانٌ، كما قيلَ لي،
هضيمةُ الكشحِ، حَصَانُ الخِبا
المجدُ والوجدُ بقاماتِها
عن غايةِ اللُّطفِ، لَقدْ أعربا
ريانةُ الأردافِ، ألحاظُها

سَهمٌ من الإبداعِ، قد صُوِّبا
لكنْ .. هوى قلبي - وقد كانَ لي
قلبٌ كباقي الناسِ - هذي الظّبا
آرامَ هذا الحيّ من «مدينٍ»
فـ «البدع» «فالبتراء» حتى «ضبا»

كم قائلٍ: فُرَّ، ألمْ يأتِهِ:
لا أرنباً كنتُ، ولا ثعلبا
وهَلْ يفرُّ الحرُّ من خُطَّةٍ
ساقتْ عليه جيشَها الألجبا؟
كذباً، ودسّاً، وإفتراءً؛ إذنْ:
فلستُ من قحطانَ أو يَعْرُبا!

* * *

خيالَ أطفالي .. وقَدْ زرتَني
غداةَ أمسِ العيدِ .. مُسْتَعْتِبا

من كوخِ إرهاقي وهذا الحمى :
حَذارِ ، بعدَ اليومِ، أنْ تقرُبا
فالناسُ إنسانانِ : مَنْ همُّهُ
أنْ يرتوي ذُلاً، وأنْ يَلْعبا
وآخرُ تأبى عليه الحِجا
إلاّ بأنْ يشقى، وأنْ يتعَبا

ما قيمةُ الألقابِ منصوبةً
والظهرُ بالخزيِ قد احْدَوْدَبا؟!
كم مُطلقِ العنوانِ، ألقابُهُ
ما حقَّقَتْ سُؤْلاً ولا مطلَبا!!
يستنسبُ الريَّ بصفعِ القفا
يا بئسَ ما اختارَ وما اسْتَنْسَبا!!
.. وراسفٍ بالقيدِ ، ما ينثني
يدأَبُ، حتى يبلُغَ المَأْرَبا

﴿ ٤ ﴾

بادرْ إلى اللذّاتِ قَبْلَ فوَاتِ
وهَلُمَّ نَهْمِلْ، فالزَّمانُ مؤاتِ

أمَّا الوقارُ فلا تدعْ أَبداً لَهُ
أثراً، يعرقلُ ظلُّهُ خُطواتي

إني أخو طَرَبٍ، أعيشُ لأنتشي
علَّ الزّمانَ يدوخُ من نَشَواتي

سكرانُ، قد صدقوا ورَبِّ مُحَمَّدٍ،
إنّي أخو طربٍ، فتى حاناتِ

أُسْقَى، وأَشربُها، وأَعرفُ أنَّها
رِجْسٌ، ومِن عَمَلِ اللعينِ العاتي

لكنَّ فيها للأنامِ منافعاً
قد تجمعُ الشملينَ بعدَ شَتاتِ

﴿ ٥ ﴾

يقولونَ إنّي إنْ شربتُ ثلاثةً
فلا خيرَ للأردنُ ، من همَّتي، يُرجَى

ثقي.. أنَّ مَنْ يهديه حُبٌّ بلادِهِ
وإنْ أدمَنَ الصهباءَ، لا يُخْطِىءُ النَّهْجَا!

﴿ ٦ ﴾

موطني الأردنُّ لكنّي .. به
« كلّما داويتُ جرحاً سالَ جرحُ »
وبنفسي .. رحلةٌ عن أرضه
علّه يُشفي، من الإرهاقِ، نَزْحُ!

أنْ أرى لي بيتَ شَعْرٍ حَوْلَهُ
من شلايا قومكِ السّرحانِ ، سَرْحُ
في فلاةٍ ليس للعلْجِ بها
حيّةٌ تسعى .. وثعبانٌ يَفِحُّ

﴿٧﴾

لقَائلٌ مَنْ هو يا عربيدُ؟
هذا الذي بذكرهِ تُشيدُ
وباسمِهِ تُبَرَّمَ القصيدُ
أَمترَفٌ معاشُهُ رغيدُ؟
وقومُهُ غرٌّ .. أباةٌ .. صِيْدُ
أم شاعرٌ أم كاتبٌ مُجيدُ؟
أم فارسٌ أم بطلٌ صنديدُ؟

لا ذا ولا ذياكَ .. يا منكودُ
«عبُّودُ»[٣] شيخٌ اسمُهُ: عبُّودُ

عِمّتُهُ صيَّرها التّنضيدُ
ذاتَ التفافٍ بابُهُ فريدُ
وفقهُهُ مختصرٌ مفيدُ
موضوعُه: في الجنةِ الخلودُ
حصةُ مَنْ في جيبهِ .. نقودُ

فخُذْ بهذا النهجِ .. يا بليدُ
فهو الطريقُ الواضحُ السديدُ
في موطنٍ .. سُكّانُهُ عبيدُ!

﴿٨﴾

«الهَبْرُ» ٤ عادَ .. وإنّ عوداً ..
مثلَ عَودِ «الهبر» يُحْمَدْ
فالهبرُ في دُنيا الهمالةِ..،
رغمَ أنفِ الفَضْلِ، أوحَدْ
فاعرفْ مكانَكَ من مكانتِهِ الرفيعةِ..
يا «مُعَوَّدْ»

واشهد، فديَتُكَ، إنَّهُ المجد المؤثَّلُ ..

يومَ يُنشَدْ

واعطفْ على الجنديّ

واستَشْهِدْ مواطِنَنا مُحمَّدْ

واسألْ « فردريكَ بن بيكَ ° » ،

إذا شككتَ ، بذاكَ يَشْهَدْ

« الهَبْرُ » لا تطردْهُ عَنْ بابٍ . .

أمثلُ « الهبرِ » يُطْرَدْ؟!

أو ما تَراهُ ، إذا هممتَ تهينَهُ،

أرغى وأزبَدْ

واغبرَّ ، في عثنونِهِ،

قملٌ . . هو الدُّرُّ المُنَضَّدْ

حرٌّ طليقٌ لا يُبالي . .

العيشَ أسعَفَ . . أم تَنَكَّدْ

لمّا أهانتْهُ الحياةُ..

على نفائسِها تمرَّدْ

ورأى بأنَّ المالَ يستخذي الرجالَ..

فهبَّ «يَشْحدْ»!

﴿ ٩ ﴾

إذا قالوا:

أبو وصفي[٦] لقد «غَوَّرَ..»

قُلْ: «جَلْعَدْ.»

وحطّي سَعْفَصٌ كَلَمُنْ

وهوَّزُ قبلُها .. أبجَدْ

لقد ظعنوا .. لقد شالوا

فبُعْداً .. لّلذي أبْعَدْ!

﴿ ١٠ ﴾

ظبياتِ وادي السّير .. هَلْ نفرتْ
من سِرْبِكُنَّ ، الظبيةُ السمرا؟
فهي التي خطَّتْ أناملُها،
في سِفْرِ حُبي، آيةً غرّا
وتلتْ عليّ من الهوى سُوَراً
رتَّلْتُها مُتْرنِّماً شِعرا
ومضيتُ أسألُ كلَّ فاتنةٍ،
كَرَماً وجوداً، نظرةً شَزْرا

ونَشرتُ أحلامي وقلتُ لها:
زفّي لنفسكِ ـ ويحَكِ ـ البُشرى
فالقلبُ قد عادتْه شيمتُهُ
وتدفقتْ قَسَماتُهُ بِشْرا

ريانةَ الألحاظِ من حَوَرٍ
زيدي رسالةَ حُبِّنا سطرا
ما زالَ قلبُكِ ما يزالُ بِهِ رمَقٌ..
ونفسي لَمْ تزلْ خَضْرا

سكرانةَ الألحاظِ.. مَرْحَمَةً
حنّي عليَّ بنظرةٍ سَكْرى
وإذا مددتُ إلى يديكِ يدي
فتلمَّسي لتسوُّلي عُذْرا
فحياةُ أمثالي إذا صَفَرتْ

من عطفِ مثلكِ أصبحتْ صفرا

وثابةَ النهدينِ حاجتُنا
لزكاةِ حُسْنكِ لَم تَعُدْ سرّا
ما زالَ قلبُكِ ما يزالُ به رَمَقٌ..
ونفسي لم تزلْ خضرا

شِبْنا .. وحُبكِ ما يزالُ فتىً
غضَّ الإهابِ يُغازلُ الدّهْرا

﴿ ١١ ﴾

من أجلِهم .. غيرَ أنّي
لا أسألُ الناسَ .. أجْرا

عن زفرتي تسأليني :
حرَّى، أَجلْ هي حرَّى!
لكنّها بدموعي
وسحرِ عينيكِ .. سَكْرى

فما أُبالي أَوَرْداً
وطأْتُ أم دُسْتُ جَمْرا
وما أُبالي أسهلاً
قطعتُ، أم جُزْتُ وَعْرا
وما عليَّ جهادي
أفادني أم أَضرَّا

فالصبرُ بالحرِّ أحرى

﴿ ١٢ ﴾

فسلْ (ميشالَ) في عمَّانَ عنّا
تجدْ رجُلاً بحالتِنا خبيرا
بأنّا نشرَبُ (الكُنياكَ) صِرْفاً
ويشربُ غيرُنا . .عرقاً وبيرا

﴿ ١٣ ﴾

يقولُ الشيخُ: تُبْ عَنْ حُبِّ ليلى
وريَّا والرَّبابِ (وكلفدارا)
فقلْ للشّيخِ: هَلْ في الفُقْهِ نَصٌّ
يبيحُ إليَّ أنْ أحيا حِمارا؟

﴿ ١٤ ﴾

سأفتحُ حانةً وأبيعُ خمراً
بوادي السّيرِ.. لكنْ للعذارى
لعلّ عيونَكِ السوداءَ .. يوماً
تطالعُني بحَمْلقَةِ السُّكارى

﴿ ١٥ ﴾

ليتَ الوقوفَ - بوادي السِّيرِ - إجباري
وليتَ جارَكَ - يا وادي الشِّتا - جاري
لعلَّني مِن رؤى وجدي القديم بِه
أرتادُ مسَّاً لجنّياتِ أشعاري
فألمسُ الشوقَ في أطلالِ ذاكرتي
وألمحُ الحبَّ في أنقاضِ أوطاري
ولا أُبالي ، إذا لاحت مضاربُهم،
مقالةَ السوءِ .. في تأويلِ مِشْواري!

بين الخرابيشِ لا عَبْدٌ ولا أَمَةٌ
ولا أَرِقَّاءُ في أَزياءِ أَحرارِ
ولا جُنَاةٌ ولا أرضٌ يضرّجُها
دَمٌ زكيٌّ، ولا أخَّادُ بالثَّارِ
ولا قُضَاةٌ .. ولا أحكامُ أسلمُها ـ
بَرْداً على العدلِ ـ أتُّونٌ من النارِ
ولا نُضَارٌ، ولا دَخْلٌ ضريبتُهُ
تُجْبى، ولا بيدرٌ يُمْنى بمِعْشَارِ

بينَ الخرابيشِ... لا حرصٌ ولا طَمَعٌ
ولا احترابٌ على فلسٍ ودينارِ
بين الخرابيشِ لا مالٌ ولا نَسَبٌ
ولا احترابٌ على حرصٍ وإيثارِ
ولا هُيامٌ بألقابٍ وأوسمةٍ
ولا ارتفاعٌ ولا خفضٌ .. بأقدارِ

الكلُّ «زُطٌّ».. مساواةٌ مُحَقَّقةٌ
تنفي الفوارقَ بينَ الجارِ والجارِ

بينَ الخرابيشِ لا كذبٌ ولا مَلَقٌ
ولا وشاةٌ ولا روّادُ أخبارِ
ولا جواسيسُ، أنّى سرتُ، لاحقَني
أوغادُهُم، خلسةً، يَقْفُونَ آثاري

بينَ الخرابيشِ لا حِبْرٌ ولا وَرَقٌ
ولا يَراعٌ ولا تدوينُ أسفارِ

.. والهَبْرُ يرفلُ في نُعمى تشرُّدِهِ
بينَ الكواعبِ محفوفاً بأقمارِ
تداعبُ الطبلَ سكراناً أناملُهُ
فإنْ صحا غَبَّ من صهباءِ مزمارِ

وسرَّحَ الطرفَ في أعطافِ راقصةٍ
هيهاتَ من شدوِها تَرْجيعُ أطيارِ

هذا هو العمرُ ـ لا ساعاتُ تنفقُها،
في الأرضِ، تردفُ مشواراً بمشوارِ

يا بنتُ، وادي الشّتا هَشَّتْ خمائلُهُ
لعارضٍ هلَّ من وسميٍّ مِبْدارِ
« وثغرةُ الزعتريِّ » افترَّ مبسَمُها
عَنْ لونِ خَدِّكِ إذْ تغزوْهُ أنظاري
وسهلُ إربدَ قد جاشتْ غَوارِبُهُ
بكلِّ ما فيهِ مِن عُشبٍ و نوَّارِ

إنَّ الشماليخَ في حصنِ « الصريحِ » لَقدْ
حالتْ إلى عَسَلٍ، يا بنتُ، فاشتاري

دعي المدينةَ، لا يخدَعْكِ باطلُها
فزيفُها بيِّنٌ من غيرِ منظارِ
ما بعدَ «خُبَّيز» وادينا و «خُبْزَته»
وبضٌ «عكّوبِنا» مَيْرٌ لِمِمْتارِ
وليس ثمةَ من فرقٍ بشرعتِنا
ما بينَ راعي «سحاحيرَ» وسَحَّارِ

خدّاكِ، يا بنتُ، من دحنونِ ديرتنا
سبحانَه بارئُ الأردنِّ من باري

﴿ ١٦ ﴾

قسَماً بماحصَ والفُحيْصَ..
وبردِ ماءِ الحُمَّرِ
إنّي إلى تلكَ الربوعِ..
وحُسْنِها المتوفِّرِ
سأظلُّ نضوَ تشوقٍ
وتذكُّرٍ.. وتَحسُّرِ!

﴿ ١٧ ﴾

أقسِمُ بالحصنِ ووادي السّيرِ
والرّشأِ المُهَفْهَفِ الغَريرِ
لستُ، إذا ما قيلَ: بالبنجورِ [٧]
احضرْ، بِمَنْ يرغبُ في الحضورِ!

﴿ ١٨ ﴾

ياليتَ إسحق السّمارة [٨]
يا ناسُ قد فَهِمَ العبارةْ
وَسَقى وسُقّيَ وانتشى
وأعارَ هذا الكأسَ جارهْ
علَّ السلافَ وما لَها
يوماً تحلُّ له العبارهْ
فترى السُّدى، كلَّ السُّدى
حُلَلَ الشَّبابِ المستعارةْ

أنا لم أكنْ يوما وزيراً
لا ولا رأسَ الوزارةْ
لكنني - وبرغمِ أنفِ الكونِ..
يا ابنَ المستشارةْ
سأظلُ عنوانَ التُّقى
وأعيشُ عنوانَ الطهارةْ
نفسي، ككأسي، ما بها
أثَرٌ لأقذارِ الدّعارةْ
والناسُ ، حَسْبي منهمُ..
يا ناسُ.. إسحقَ السّمارةْ
وطَلاً كعينِ الديكِ صافيةً..
وتحسُدُها النَّضارةْ
من زهرِ جَلْعادَ الأشمِّ
ومِن رُبى تلكَ المنارةْ
أُسْقِيْتُها فشربتُها

فاستحوذتْ نفسي الحرارةْ
فإذا بها ذاكَ الدُّخانَ . .
أراهُ مُؤتَلِقاً شرارهْ

فتعالَ حيثُ أنا هُنا
واحذرْ، فَقَيْدَ النار . . شارةْ

إنَّ العناوينَ التي
كنا نسيرُ على غَرارهْ
أصلحَها « ممتازُ السماوي » [٩]
في حانِ إسحقِ السّمارةْ

﴿ ١٩ ﴾

رمَى ورميتُ صُنَّارةْ
فلم نَصْطَدْ ولا بارةْ
وعادَ وعُدْتُ ، في خُفَّيْ حُنينٍ . .
نذرعُ الحارةْ

وللإفلاسِ وسواسٌ
برأسي أَصطلي نارهْ
بهِ أنشبتُ أظفاري

وبي أنشبَ أظفارهْ

« يقيمُ قيامتي » طوراً

« وأحرِقُ ديكَهُ » تارةْ

وعهدي أنَّه قد كانَ لي « بالبنكِ » . . إضبارةْ

وأنَّ الناسَ فيهمْ عُصْبةٌ

ليستْ بغدَّارةْ

ومن أفذاذِها المِنْجادُ . .

« منصورُ بن قدَّارةْ »[١٠]

« وبلتكيانُ »[١١] خيَّاطُ الجيوشِ . .

وليسَ جَرَّارهْ

فكم حرَّرْتُ « سَفْتَجَةً »

عليها منهُمَا شارةْ

أحالَتْها مودَّتُهم

إلى ليراتِ ثرثارةْ

تُحدِّثُ عن ثرائي واليسارِ . .

الجارَ والجارةْ
وتصفَعُ طُغْمَةٌ شمتَتْ
بإفلاسي «بكندارةْ»
وكم فيها شننتُ على
مخازنِ «أسعدٍ» غارةْ
وأرجَعَها إلى الجرذانِ..
رُخُصٌ زانَ أسعارهْ
وصيَّرَ شيخَنا «عبُّودَ»..
ينظمُ فيه أشعارَهْ
غداةَ قد اشترى منها
إلى «عثمانَ» سيدارةْ
وجُوْخَةَ كِسْوَةٍ من صَنْعَةِ الزَّوْراءِ..
مُختارةْ
بأثمانٍ لَقدْ جعلتْ
جميعَ الناس زوَّارَهْ

ولولا أنَّ بعضَ الحَنْثِ..
قد يحتاجُ كَفَّارةْ
وأنّي باديَ الأنفاضِ..
رغمَ السَّمْتِ والشارةْ
وأنَّ النَّفسَ رغمَ مَتابِها..
بالسوءِ أمَّارةْ
وددتُ لو أنَّ مخزنَ..
ابنِ أسعَدَ .. فيه خمَّارةْ
أو أنّي في ركابِ «الهبرِ»..
أعزفُ عنهُ طُنْبَارَهْ
أروضُ عليه بوهَمَتي
وأروي الناسَ أخبارَهْ
إلى أنْ تستقرَّ بنا
عصاً ويحطَّ تسيارهْ
بأرضٍ لا يهونُ بها

الأَبيُّ الحرُّ يا جارةْ

فليس كموطني وطنٌ
أُذِلَّ، يُذِلُّ أحرارَهْ

﴿ ٢٠ ﴾

في مصرَ، يا ناسُ، أشياءٌ محببةٌ
للنفسِ توشكُ أنْ تجتاحَ أنفاسي
لكنَّ ذكراكَ، يا وادي الشّتا ، وهوى
جآذرِ « السِّير » .. رأسُ الكومِ في راسي
فواحنيني لِعَطفِ الواردات عَلى
ماءِ « الموقّرِ » أو « بئرِ ابن هرماسِ »
وضجعةٍ فوقَ مُخضَلِّ الرِّمالِ على

وسادةٍ من خيالاتي ووسواسي
وواحنيني إلى كأسٍ مُشَعْشَعَةٍ
بماءِ « راحوبَ »، والدُّنَانُ « بِتْراسي »
وضَجْعةٍ فوق جرعاءِ الحمى ورؤىً
تطغى عليَّ، إذا ما لجَّ إحساسي

فابلغْ مها السفحِ من عمَّانَ . . أنَّ مها
مصرَ الجديدةِ، أعياهُنَّ إسلاسي!

﴿ ٢١ ﴾

من رأسِ بيروتَ حتّى ثَغْرِ «لارْناكا»
لَقدْ فَرَكْتُ مع الحسناءِ .. تُنْباكا
ولم أَزلْ بالنُّدامى كلّما فَتَرَتْ
أَكفُّهم سمتُها «روماً» «وكُنياكا»
فإن زهوَ العُلا والمجدِ أنّ فتىً ،
كمصطفى، سَلَبتْهُ الغيدُ إدراكا
وكلُّ رعبوبةٍ خُمْصانةٍ نَصَبتْ ،
لمثلهِ ، في طريقِ الحُبِّ، أشراكا!

﴿ ٢٢ ﴾

سأفتحُ حانةً وأبيعُ خمراً
« بوادي السَّلط » . . لكن للنُّدامى

وسوفَ حياتُك الجوفاءُ تزهو
بأنَّ « عرارَ » أثقَلَها هُياما
وسوفَ إذا الربيعُ أتى وَهشَّتْ
رُبى « جَلْعادَ » . . وانتحرَ ابتساما
سأطلقُ لحيتي وأُطيلُ شَعري
وأُقْرِي كلَّ درويشٍ سَلاما

﴿ ٢٣ ﴾

« هبَّ الهوا » . . وشَجَاكَ أَنَّ نسيْمَهُ،
في ضَفَّةِ « الأردنّ »، ريحُ سَمومِ
والشَّعبُ أضيَعُ عندَهُم مِن سائلٍ
قَذرٍ . . يمدُّ ذراعَهُ للئيمِ
والمرهقوهُ على حساب شقائِهِ
بمناعةٍ من بؤسِهِ، ونعيمِ!

يا مُدَّعي عام اللواءِ.. بلاؤنا
سيظلُّ - مهما خصَّصُوهُ - عمومي
خلٌّ الجريمةَ.. إنَّ سرَّ وقوعِها
لو رحتَ تَنْشُدَهُ تَجِدْهُ حكومي
لا يستقيمُ الظلُّ يا ابنَ أخي إذا
ما كانَ أصلُ العودِ غيرَ قَويمِ
زيتونُ «بُرْما» رغمَ أنفِكَ داشرٌ
ما زالَ .. وهو، كذاكَ، منذُ قديمِ

«هبَّ الهوا» وأنا وأنتَ يَهمُّنا
قبضُ المعاشِ بيومهِ المعلومِ!

﴿ ٢٤ ﴾

هَبلتْكَ أمُّكَ .. والحديثُ شجونُ
ظبياتُ وادي السّيرِ حورٌ عِيْنُ
وَأنا بِهنَّ - وإنْ يكُنْ فرَّ الصّبا -
وشبابِهِنَّ ، مُتَيَّمٌ مفتونُ

سلمى! بماحصَ قد تألَّقَ مَوهناً
برقٌ، وبلَّ ثرى الفُحيصِ هَتونُ

« فإذنْ ،وربِّ الراقصاتِ إلى منىً »
لا بُدَّ مِنْ أنْ يورقَ الدحنونُ
ولسوف أبصرُ في تضرُّجِ خدِّهِ
خدّيكِ يمتقِعانِ يا برفينُ

سُقياً لعهدكِ والشّبابُ قشيبةٌ
أبوابُهُ، وأنا بكِ المفتونُ
وذوائبي لم تشتعلْ شيباً .. ولم
تزحف عليَّ ، وقد كَبِرْتُ، غُضونُ

هَلْ تذكرينَ تدلُّهي وتولُّهي
بكِ .. والحياةُ كما أُريدُ تكونُ

يا ظبيةَ الوادي، وما الوادي إذا
لم تؤنسيهِ وما عَساهُ يكونُ؟

فرَّ الصِّبا .. أما الشّبابُ فإنَّهُ
يبكي عليَّ لأنني مسكينُ
قد بعتُ في طِرْدِ الهوى ريعانَهُ
وأشحتُ عنْه كأنّيَ المغبونُ
وتبعتُ «سلمى» .. إذْ مضارِبُ قومِها
أمتاحُ من نظراتِها .. وأشونُ

إنَّ «الخرابيشَ» التي حامتْ على
أو حولَ مَنْ يرتادُهُنَّ ، ظنونُ
في نَجْعِهِنَّ ورَبْعِهِنَّ ودَمْعِهِنَّ،
إذا صَدَقْنَ وإنْ كَذَبْنَ ، يقينُ!

﴿ ٢٥ ﴾

وَهِمْتَ .. فليسَ ما سمَّيتَهُ الإيمانَ..
إيمانا
ولا هذا الذي قد خِلْتَهُ تقواكَ..
فَحْوانا

أتهذي بالسلوِّ وقَدْ
غرامُ الغيدِ أَضنانا

وقد للكأسِ تهفو نفسُ مَنْ..

يسلوهُ أحيانا

وذو الشّوقِ القديمِ إذا

تذكّرَ .. عادَ ولهانا

فَدَعْ عنكَ الهُراءَ وقمْ

نُذِعْ للناسِ إعلانا:

ألا مَنْ يشتري بالحانِ..

والألحانِ ، تقوانا

بسعرِ: صلاةِ إسبوعٍ

ببعضِ الكأسِ ملآنا

وأجوَدُ صنفِ تسبيحٍ

بذكرِ اللّهِ ريَّانا

يُبَاعُ وجُمْلَةً «بالكَمْشِ» ..

لا يحتاجُ ميزانا

بنظرةِ شِبْهِ حسناءٍ

تَطلّعُ في مُحيَّانا

فَهلْ - وبَهذه الأسعارِ ... -
شاريةٌ بعمّانا

لو أني أرأسُ الوزراءَ..
أو قاضٍ كمولانا
لألغيتُ العقاب.. ولم
أَدَعْ للنفيِ إمكانا
أمّا وأنا مَن اتخذوهُ..
للإرهاقِ ميدانا
فمنِ سجنٍ إلى منفىً
لآخرَ شطّ أبوانا
فهاتِ الكأسَ مُتْرَعَةً
من الصَّهباءِ ألوانا

يطالعُنا بها حَبَبٌ ،

كعينِ الديكِ ، يَقْظانا

وهَبْ « عمّانَ » ماثلةً

وظُنَّ « حُميْدَ » « حَمْدانا » [١٢]

وهذا الكوخَ ديوانَ الأميرِ . .

وذاكَ « رَغْدانا »

وقل « للهَبْرِ » يا باشا

وسمِّ « هُديبَ » « شوشانا » [١٣]

وعِشْ رغمَ القوانينِ التي آذَتْكَ . .

سُلْطانا

فمثلُكَ مَنْ تَمرَّدَ كلَّما

ساموهُ إذعانا

لعَمْرِ الحقِّ لَنْ يتنكَّبَ الإخلاصُ . .

خِذْلانا

وسوفَ يظلُّ سيفُ النَّصرِ . .

للأحرارِ معْوانا
وسوفَ نُهيرُ من هذي..
الصُّروحِ الهُلْسِ .. بُنيانا
فلا يخدَعْكَ ظاهرُها
ولا تهويلُ مولانا

وقلْ، إنْ قيلَ لا عفوٌ
لعلَّ العفوَ .. لا كانا

﴿ ٢٦ ﴾

يا جيرةَ البانِ! ليتَ البانَ ما كانا
ولا عَرَفْنا ، بوادي السّيرِ ، خِلاَّنا
وليتَ جذوةَ ذاكَ الحبِّ ما اتقدَتْ
ولا اصطلينا ، من الأشواقِ ، نيرانا

يا جيرةَ البانِ ! هيهاتَ الشبابُ فقد
حالتْ مسرَّاتُهُ .. بَرْحاً وأَشْجانا
وبدَّلتْه الليالي من تمرُّدِهِ ،

على التقاليدِ، تسليماً وإذعانا
وأخلفَتْ خيبةُ الآمالِ ، جِدَّتَهُ
وشوَّهتْ سِفْرَهُ، مَتْناً وعنوانا
وأقفرَ القلبُ إلاّ مِن رسيسِ جوىً
يكادُ أنْ يَوْقِرَ الأحشاءَ هِجْرانا
ومن بقيّةِ إحساسٍ وعاطفةٍ
تنمُّ عنها دموعُ الشعرِ أحيانا

فانظرْ مغانيه.. كيفَ الأُنسُ أنكرَها
وكيفَ ما عادَ دَوْحُ العمرِ ، فينانا
وكيف أصبحتُ لا أهتمُّ هل نَزَلَتْ
«عمانَ» أم غادرتْ لمياءُ «عمّانا»
ولا أبالي أَركبُ «الهبرِ» شرَّفها
بالأمس ، أم ركْبُهُ عن أرضِها .. بانا
أصبحتُ أمساً ويأساً ، فادنِ خابيتي

أسبِّحُ الكأسَ أو أستغفرُ الحانا
وقُلْ «لعبّود» إن أنحنى بلائمةٍ:
لا تبذلِ الوعظَ ـ ياأستاذُ ـ مجّانا
فالقومُ قومي، وهذا موطني، وأنا،
مِن تالدي، أسألُ الغوغاءَ.. إحسانا!

يقول «عبّودُ»: جناتُ النَّعيمِ على
أبوابِها حارسٌ يدعوهُ رضوانا
من ماءِ «راحوبَ» لم يشربْ وليسَ لَه
رَبْعٌ «بجلعادَ» أو حيٌّ «بشيحانا»
ولا تفيّأَ في «عجلونَ» وارفةٌ
ولا حدا بهضابِ «السلطِ» قُطْعَانا
ولا أصاخَ إلى أطيارِنا سَحَراً
«بالغورِ».. تملأُهُ شدواً وألحانا
ولا «بوادي الشّتا» تامتْهُ جُؤْذُرَةٌ

ولا رعى بسهولِ «الحِصْنِ» .. غزلانا
ولا تأردُنُهُ يوماً بمحتَملٍ
ولا لتقديسهِ الأردنَّ إمكانا

إنْ كانَ يا شيخُ هذا شأنُ جنَّتِكم
فابعدْ بها .. إنّها ليستْ بمرمانا
وقل معي بلسانٍ غيرِ ذي عَوَجٍ:
«لا كنتِ يا جنَّةَ الفردوسِ مأوانا»

﴿ ٢٧ ﴾

خلِّ السّجايرَ وادنِ لي غليوني
أقضي بِهِ وَطَراً من التدخينِ
وهَلُمَّ نشربُ قهوةً عَرَبيَّةً
قد صِيْنَ سرُّ عبيرِها لـمَصُونِ
إنّي يلذُّ لي الجلوسُ (مُكَعْوِكاً)
مُتَقَهْوِياً، ومُقَهْوياً مَنْ دوني

يا قائدَ الدَرَكِ المُدِلِّ بشُرْبِه . .
كأساً، لقد قُرِنْتَ بشرِّ قَرينِ
بجنابِكَ العالي، ومثلُكَ، قلَّ مَنْ
يسقي السُّلافَ . . أجنُّ مِن مجنونِ
لا تَغْتَرِرْ بتعفُّفي عن شُرْبِه
وبنَفْضِ ظَهْرِ الكَفِّ، إذ تَدْعوني
فمواكبُ الحاناتِ بعضُ هوادجي
وهوادجُ الخمَّار بعضُ ظُعوني
واللّهُ يَعلمُ أنّني بزقاقِها
ودنانِها، المفتونُ مُنذُ سنينِ

لو كنتَ كُنياكاً وجندُكَ وسكياً
وشربتُكُم . . تاللّهِ لا تروني

يا قائدَ الدَّرَكِ المُلمِّعِ سيفَهُ

بالماءِ والإسْفنْجِ والصابونِ
« أأتتْكَ أبناءُ الرّصيفةِ تشتكي
قحطَ الأوانسِ بعدَ حُورِ عينِ؟
لم يبقَ فيها ما يحبِّبُ قربَها
للنفسِ.. إلاّ الكافرُ العمُّوني! »[١٤]

دارَ الزمانُ .. وراحَ يلعبُ عابثاً
بصميمِ تهْيامي وقُدْسِ حنيني

خلِّ الزّمانَ وشأنَهُ، فلربّما
كانتْ رباعُ الشوقِ لا تعنيني
وارجع إلى رأسِ الوظيفةِ عاجلاً
واعلمْ بأنّكَ لستَ بالمأذونِ
فلربَّ شاكٍ يأتني مُتَذمِّراً
ليقولَ لي بصراحةِ المَغْبونِ:
أكبيرَ دولتِنا أتيتُكَ شاكياً

نَفَراً من الأعرابِ قد ضَرَبوني!

(وحياةِ رأسِكَ)، والحياةُ عزيزةٌ
لولا الكتافُ وخشيةُ التَسْجينِ
(لحرقتُ ديكَ أبيهِمُ) من زمرةٍ
حَرَقوا ، بِتْرشاقِ الحجارةِ ، ديني

﴿ ٢٨ ﴾

إنّ الزّمانَ .. ولا أقولُ زماني
بينَ الطوابعِ والرسومِ .. رماني
وأحالَ لذّاتي وساوسَ حاسبٍ
يهذي بضربِ ثلاثةٍ بثَماني

فانظرْ إلى النُّدمانِ كيفَ تَفَرَّقوا
بعدي، وكيفَ علا الغُبارُ دِناني

وإلى قريضي كيفَ أصبحَ تافهاً
وإلى بليغِ القولِ.. كيفَ عصاني
وإلى أمانيَّ العِذابِ يسومُها
سوطُ الحسابِ، مهانةَ العُبدانِ
قانونُ «هوبر»[١٥] حالَ بعضُ جريضِهِ
دونَ القريضِ.. ودونَ كلِّ بيانِ
فاستَكْتبوا «قعوارَ»[١٦] نصَّ تميمةٍ
غراءَ تُذْهِبُ عُقْدَةً بلساني
وتشدُّ أَزْرَ هواجسٍ شعريةٍ
من كلِّ فاكهةٍ بها زوجانِ
وتعيدُ أحلامَ الشّبابِ ضحوكةً
كالزّهرِ يَبْسُمُ في سهولِ «مَعانِ»

يا أختَ وادٍ قد دعوتُكِ باسمِهِ
ولَهُ نسبتُ ـ تَبَرُّكاً ـ ديواني

قومي وقومُك في الصَّغارِ وجَهْلِهم
معنى الحميةِ، كفَّتا ميزانِ
وأنا وأنتِ على اختلافِ قبيلنا
في عُرْفِ (بيكِ) وجيشِهِ سيانِ

فادني كؤوسَكِ.. إنّ بعضَ عزائنا
فيها، وفي هذا القَوامِ الباني!
وبهذه الزفراتِ، وقَّعَ لحنَها
صدري ،وصعّدهَا صداكِ.. أغاني

يا أختَ (سلمى) في غناكِ عذوبةٌ
تُبْكي، ويُغْرِقُ دمعُها أحزاني
ما شمتُ ومضَ اليأسِ في نَبَراتِها
إلاّ استَبَنْتُ بشجوِها ألحاني
ورأيتُ في مرآةِ بؤسِكِ صورتي

وقرأتُ فوقَ إطارِها عنواني
وعرفتُ، فيما أنتِ فيه من الأذى
ومن الصَّغارةِ والهَوانِ.. هواني

أهلوكِ قد جعلوا جمالَكِ سلعةً
تُشْرَى، وباعَ بنو أبي أوطاني
وذووكِ قد مَنَعوكِ كلَّ كَرامةٍ
وأنا ،كذلكَ، حارسي سجَّاني

يا بنتُ في إسبالِ جَفْنِكِ (مَحْمَلٌ)
(للاشتباهِ) بأنَّ طرفَكِ (جاني)
وبأنَّ هذا القلبَ عاثَ بأمنِهِ
عينانِ ـ واقلباهُ ـ سوداوانِ
لا مدعي عامِ اللواءِ أجارني
من سِحْرِهِنَّ.. ولا طلالٌ [١٧] حَمَاني

للّهِ قومي كيفَ عكّر صفوَهُمْ
طيشُ الشُّيوخِ وخفَّةُ الشُّبَّانِ
وتسوَّلُ المُتَزعِّمينَ، حقوقَهم
من زمرةِ (الأُذَّانِ) (والغلمانِ)
وتظاهرُ المتصدرينَ لبيعهم
ـ لا عَنْ تُقىً ـ بحمايةِ الأديانِ!

يا ربِّ .. إنْ بلفورُ أنفَذَ وعدَه
كم مسلمٍ يبقى وكم نصراني؟!
وكيانُ مسجدِ قريتي مَنْ ذا الذي
يُبقي عَليه.. إذا أُزيلَ كياني؟!
وكنيسةُ العذراءِ أينَ مكانُها
سَيَكونُ .. إنْ بُعِثَ اليهودُ مكاني؟

هاتِ اسقني قعوارُ.. ليس يهُمُّني
قولَ الوُشَاةِ: عرارُ (سَكْرانانِ)

﴿ ٢٩ ﴾

قولوا لعبُّود، علَّ القولَ يُشفيني
إنّ المرابينَ إخوانُ الشياطينِ
وأنّهم ـ لا أعزَّ اللّهُ طغمتَهم ـ
قد أَطلعوا، رغمَ تنديدي بهم، ديني

فذا يقولُ: غريمي كيفَ تُمْهِلُهُ
وذاكَ يصرخُ: لمْ تَحْبِسْهُ مديوني؟
كأنّما الناسُ عُبْدانٌ لِدرهَمِهم

وتحتَ إمرتِهم نصُّ القوانينِ!

يا رهطَ (شيلوخَ)[١٨] ! مَنْ يأخذْ بناصرِكم
يجنِ عَلى الحقِّ والأخلاقِ والدّينِ
ومن يُسهِّلُ أمراً فيه مَصْلَحَةٌ
لكَ . . فملعونٌ حقاً وابنُ ملعونِ
فما كَظُلمِكم ظلمُ الفرنجِ . . ولا
كَفَتْكِكُم بالورى، فَتْكُ الطّواعينِ

أأسجنُ الناسَ إرضاءً لخاطرِكم
وخشيةَ العزلِ من ذا المنصبِ الدُّونِ؟
أم رغبةٌ في تقاضي راتبٍ ضَرَبوا
نقودَهُ من دماءٍ في شراييني؟

هذي الوظيفةُ إنْ كانتْ وجائبُها . .

وَقْفاً عَليكم، فَعنْها اللّهُ يُغنيني
إنَّ الصعاليكَ إخواني وإنَّ لهم
حقاً بِه ـ لو شعرتمْ ـ لم تلوموني
فالعزلُ والنفيُّ، حُباً بالقيامِ بِهِ،
أسمى بعينيَّ من نَصْبي وتعييني

ياشرَّ مَنْ مُنيَتْ هذي البلادُ بهِم
إيذاؤكُم فقراءَ الناسِ.. يؤذيني
إنَّ الصعاليكَ مثلي مفلسونَ وهم
لمثلِ هذا الزمانِ « الزّفتِ » خبُّوني
والأمرُ لو كانَ لي لم تفرحوا أبداً
مِن أجلِّ دينٍ لكمُ يوماً بمسجونِ

(فبلّطوا البحرَ) غيظاً مِن مُعاملتي
وبالجحيم، إنْ اسطَعْتُم، فزجُّوني

﴿ ٣٠ ﴾

يا راهبَ الدَّيرِ! تُبْنا عن محبَّتِهم
وقد أَنبنا! «فلا كاني ولا ما ني»!
شِبْنا ، ورانَ على الفَوْدينِ مُتَّزِنٌ
من المَشيبِ.. بكى حظّي وأَبكاني

يا راهبَ الدَّيرِ! جَلْعادٌ صحيفتُهُ
طويتُها.. ولَها قدَّمْتُ قُرباني
افتحْ ليَ البابَ، وادمِجْني بزمرتكِم

فبردُ جلعادَ ـ يا «بونا» ـ تَحدَّاني

لستُ المسيحَ، ولكنْ مجدليّتُكُم،
كبنتِ يفتاحَ، دَعْها، اليومَ، تَرْعاني

﴿ ٣١ ﴾

خدَّاكِ، يا بنتُ، من دحنونِ ديرتِنا
روحي فداءُ الخُديْدِ الأَحمرِ القاني!
فلا عليكِ إذا أقريْتِني لَبناً
وقلتِ: خبزتُنا من قَمْحِ حورانِ

أما السّكاكرُ فلينعَمْ بمأكَلِها..
«صبري» و «منكو» و «توفيقُ بنُ قطّانِ»
وليحييَ «لدجَرُ» و «الكوتا» وطغمتُها [١٩]

في ظلّ دوحٍ من اللذّاتِ فينانِ!

* * *

ماذا على الناسِ من سُكري وعَرْبَدَتي
ماذا على الناسِ من كُفْري وإيماني
ماذا على الناسِ من قولي لهم: أَحَدٌ
ربّي، وقولي لهُمْ: ربّي لَهُ ثانِ
ماذا على الناسِ من لَهْوي ومن عَبَثي
ماذا على الناسِ من جهلي وعِرْفاني
ماذا على الناسِ من جهلي ومعرفتي
ماذا على الناسِ من ربحي وخُسراني
ماذا على الناسِ من صَفْوي ومن كَدَري
ماذا على الناس.. إنْ دهري تحدَّاني
ماذا على الناسِ من فقري، ومَتْرَبَتي
ماذا على الناسِ من ضَنِّي وإحساني
ماذا على الناسِ من حبّي مُكَحَّلَةً،

بينَ الخرابيشِ.. أهواها وتَهْواني

فادني شفاهَكِ من فيهي أُمَصْمِصُها
وأدفئِيْني.. فإنَّ البَرْدَ آذاني

* * *

مالي وزمزمَ.. ماءٌ غيرُ سائغةٍ
فاسقِني جُرْعةً من ماءِ حُسْبانِ
يامِيُّ! دحنونُ وادي الحورِ حُمْرَتُهُ
قد شابَها ـ ببياضٍ ـ طَلُّ نيسانِ
ناشدتُكِ اللهَ والأردنَّ.. هل قَبَسا
ـ خدَّاكِ ـ لونَهُمَا.. من لونِهِ القاني؟

* * *

قالوا: تَدَمْشَقَ، قولوا: ما يزالُ على
علاّتِه، إربديَّ اللونِ حوراني

* * *

إليكَ عنّيَ ألقاباً وأوسمةً
قد أرهقتْ بضروبِ الخِزْيِ عنواني
رأسي لِربّي، وربّي لن أُطَأْطِئَهُ
ولنْ أذلَّكِ يا نفسي لديَّانِ
شمسُ العدالةِ لم تشرقْ على نَفَرٍ
مُؤَلَّفٍ من مخاريقَ وخُرْسَانِ

فليتقِ اللّهَ بي شعبٌ محبَّتُهُ،
كانت وما بَرَحَتْ، ديني ودَيْداني
وليتقِ اللّهَ بي شعبٌ وفيتُ لَهُ
حقَّ الوفاءِ .. وبالنُكْرانِ كافاني
على مذابحِ قولي: سوفَ أُسْعِدُهُ
ضحَّيتُ عُمري، فلم يَسْعَدْ .. وأشقاني

* * *

يا أردنياتُ . . إنْ أُودِيْتُ مُغْتَرِباً
فانْسُجْنَها، بأبيْ أَنتُنَّ، أكفاني
وقُلْنَ للصَّحْبِ: واروا بعضَ أعظمِهِ
في تلِّ إربدَ أو في سَفْحِ شيحانِ

عسى وَعلَّ بهِ يوماً مُكَحِّلةٌ
تمرُّ . . تتلو عليهِ حِزْبَ قرآنِ!

﴿ ٣٢ ﴾

يامَيُّ! ما ذنبي إذا فرَّ الصِّبا
ومشى المشيبُ إليَّ قبلَ أوانِهِ؟

يا ميُّ! ما ذنبي إذا دهري عَتا
وسوادُ حظّي .. لَجَّ في طُغْيانِهِ؟

هاتي الجبينَ.. فما تزال سعادتي
أَنْ يَدْنُ من شَفَتيَّ، طَوْعَ بنانِهِ

وتَوَسَّدي صدري وحَسْبي نِعْمَةٌ
هذا الذي توحينَ من خَفَقَانِهِ

يا ميُّ ! « جلعادُ » الأشمُّ كعهدِهِ
ما زالَ يربضُ جاثماً بمكانِهِ
و « الغورُ » ما انفكَّتْ غدائرُ نبتِهِ
وزهورِهِ . . تحنو على غُدرانِهِ
وسماءُ إربدَ ما يزالُ سحابُها
يسقي سهولَ « الحِصْنِ » من هُتانِهِ
يا ميُّ! ما برحتْ حمائمُ سدرنا
تشدو مُصَفِّقَةً على أَغْصَانِهِ

فادني شفاهَكِ من فَمي . .
وتوسَّدي صدري . .
يكفُّ الدهرُ عن عدوانِهِ!

﴿ ٣٣ ﴾

هشَّتْ لـمَقْدَمِهِ المدينةْ
ومَشَتْ إلى الطيشِ، الرُّعونةْ
وامتدت الأيدي..
مُصَافِحةً ، بيسراها ، يمينهْ

يا مرحَباً بالهبر..
إنَّ الهبرَ حليتُنا الثمينةْ
فاشربْ! ولا تغضبْ..

بربِّكَ .. نخبَ لحيتِه اللعينةْ!
فالهبرُ ـ تُطربُني وتُعجبُني ـ
ملامحُهُ الرصينةْ
ووقوفُه بين المضاربِ ..
مثلَ ربَّانِ السفينةْ!
ينهى ويأمرُ والدُّخانُ ..
يكادُ أن يُعشي عيونَهْ
والشَّرْبُ مُعْتَكِفٌ على
نايٍ ومزمارٍ وقينهْ
والخُمْرُ مصغيةٌ تصيخُ ..
لأنَّةِ الناي الحزينةْ
وتكادُ تَبكي ـ لو تحسُّ ـ ...
بأدمُعٍ حرَّى سخينةْ

يا هَبْرُ! يا محُيي العظامَ ..

عظام لذّاتي الدفينةْ
مرآكَ ـ يا بيَّاكُ ـ فكَّ . .
عقالَ أشواقي السَّجينةْ
وأعادَ أبرادَ الشبابِ . .
قَشيبةً، زِيًّا وزينةْ
كعِمامةِ الأستاذِ عبُّودِ . .
المزركشةِ المتينةْ

قالوا: المشيبُ علا قُذالَكَ . .
والشَّبابُ قضى ديونَهْ
وأبوكَ ـ يا وصفي ـ قضتْ
أشواقُهُ . . ونَعَى حنينهْ

فَشَروا! لسوفَ يظلُّ هذا الرأسُ . .
مُعْتَمِراً جُنَونهْ

ما ظلَّ في وادي الشتا
والسلطِ للآرامِ عينةْ
وجآذرُ السفحينِ في
عمّانَ ليستْ بالضَّنينةْ

يا شيخُ يا مَنْ كلَّما
«عنفصتُ» .. قطَّبَ لي جَبينهْ
ماذا عَلى مَنْ سامَهُ الإفرنجُ خَسْفاً ..
أنْ تُهينَهْ
وعلى الخليع إذا اشترى الدُّنيا ..
وباعَ الكأسَ دَينهْ
وأدراها صفراءَ فاقعةً
تسرُّ الناظرينَهْ
واشتطَّ يشربُها إلى أنْ ..
يغتدي سكرانَ طينهْ

﴿ ٣٤ ﴾

خَلاكَ الذَّامُ يا وصفي
رماحي غيرُ مسنونةْ
ودربُ الحرِّ يا وصفي
كدربِكَ غيرُ مأمونةْ

﴿ ٣٥ ﴾

بارِكَ اللهُ فيكَ ـ أُردنُّ ـ داراً
ليسَ فيكَ الغريبُ عَن أوطانِهْ
بَلَدٌ كلُّه هُدىً .. فَسَواءٌ
قَرْعُ ناقوسِهِ وصوتُ أذانِهْ

﴿ ٣٦ ﴾

روحي فِداهُنَّ .. من حُورٍ ومن عِيْنِ
مِن « مأدَبا » كُنَّ .. أم من « غَوْرِنمرينِ »

ولا يزالُ الحيا ينهلُّ أبدُرُهُ
على رُباهِنَّ .. بينَ الحينِ والحينِ

﴿ ٣٧ ﴾

ألقابُ ملكِكَ ، عمري، ما أقمتُ لها
إلاّ بحانِ أبي ناصيفَ . . ميزانا
وما تسمّيهِ ـ يا مولايَ ـ أوسمةً
علّقْتُها ـ بيدي ـ للهَبْرِ . . نيشانا!

﴿ ٣٨ ﴾

يا مدعي عام اللواءِ..
وخيرَ مَنْ فَهِمَ القضيّةْ
ومناطَ آمالِ القضاةِ..
وحِرْزَ إنصافِ الرَّعيةْ
ليسَ الزعامةُ شرطُها
لبسُ الفراءِ البَجْدَليَّةْ
فيفوزُ عَمْروٌ دونَ بكرٍ..
بالمقابلةِ السنيّةْ

والعدلُ يقضي أنْ تعاملَ زائريكَ ..
على السَّويّةْ

يا مدعي عام اللواءِ ..
وأنتَ مَنْ فَهِمَ القضيةْ
الهبرُ جاءَكَ للسلامِ ..
فكيفَ تمنَعَهُ التَّحيَّةْ؟!
أَلأنَّ كسوتَهُ ممزقةٌ ..
وهيئتَهُ زريّةْ؟
قد صدَّهُ جنديُّكَ الفظُّ الغليظُ ..
.. بلا رويّةْ
وأبى عليه أنْ يراكَ ..
فجاءَ ، ممتعضاً، إليَّهْ
يشكو الذي لاقاهُ مِن
شَطَطٍ بدارِ العادليّةْ

ويقولُ: إنَّ زيارةَ الحكامِ..
لا كانتْ، بليّةْ
فاسرعْ، وكفّرْ، يا هداكَ اللهُ..
عن تلكَ الخطيَّةْ
وادْخِلْهُ، حالاً، للمَقامِ..
وفُزْ بطلعته البَهيَّةْ
ودَعِ المراسمَ والرسومَ..
لمن عقولُهُمُ شويَّةْ
فالهبرُ مثلي ثمَّ مثلُكَ..
أُردنيٌّ التابعيّةْ

يا هبرُ.. بي فقرٌ ـ كفقركَ...ـ
للإباءِ وللحميّةْ
أَو ما تراني قد شَبِعْتُ..
عَلى حساب الأكثريّةْ

وأكلتُ (بسكوتاً) وهذا الشعبُ..
لا يَجِدُ (القليّةْ)!
ولبستُ إذ قومي عراةٌ..
غيرَ ما نَسَجتْ يديّهْ
فأدرْ كؤوسَكَ، يا أبا ناصيفَ..
مُترعةً رويَّةْ
وأحلْ مقالَ الشيخِ..
إنْ أفتى بحرمتِها عليّهْ

إنَّ الذي تُسْبى مواطنُهُ..
تحلُّ له السُّبيَّةْ

عبُّودُ يا ناعي النهارَ..
على المآذنِ في العشيَّةْ
قَسَماً بماحِصَ والفُحَيْصَ..

وبالطفيلةِ والثنيّةْ
وبمن شقيتُ بهنَّ . .
وهي ، بأهلِها ، مثلي شقيّةْ
ليسَ الهُدى وَقْفاً على
فئةِ الشيوخِ الأزهريّةْ
إن الحياةَ لها قواعدُ . .
غيرُ « متنِ الخزرجيةْ »
فنبيذُ قعوارَ اللذيذُ . .
وأنّةُ الناي الشجيَّةْ
وهيامُنا بالغانياتِ . .
من الأمورِ الجوهريّةْ

أوما تراني والمشيبُ . .
كما تراهُ ، بعارضيَّهْ
ما زلتُ ، خفَّاقَ الفؤادِ . .

ولم تزلْ نفسي طريّةْ
والقلبُ ما تنفكُ تملأُ ساحَهُ..
خَطَراتُ ميّهْ
دَنِفٌ تطاردُه العجوزُ..
ولا تُهادِنُه الصبيّةْ

إنَّ القُدودَ المأدبيةَ..
والعيونَ العجرميّةْ
أشواقُها ستظلُّ في قلبي..
وإنْ أُوديْتُ، حيَّةْ
وهوايَ سوفَ يظلُّ يهزأُ..
بالقبورِ.. وبالمنيّة!

يا أختَ رمٍّ: كيف رمٌّ؟
.. وكيفَ حالُ بني عطيّةْ

هلْ ما تزالُ هضابُهم شُمّاً . .
وديرتُهُم عذيّةْ

سُقياً لعهدكِ والحياةُ . .
كما نؤملهُا . . رضيّةْ
وتلاعُ « وادي اليُتْمِ » ضاحكةٌ . .
وتُربتُهُ سخيّةْ
وسفوحُ شيحانَ الأغنّ . .
بكلّ يانعةٍ سخيّةْ
أيامَ لم يكُ للفرنجةِ . .
في ربوعِكِ ، أسبقيّةْ
والعلجُ ما انتصبتْ لَهُ ،
في كلّ مَوْماةٍ ، بَنيّةْ

أينَ السَّوامُ وسَرْحُ قومِكِ . .

بالعشية ، يا عجيّةْ
ومراحُكم لِمَ أنْكَرَتْهُ..
معاطنُ الإبلِ المريّةْ
وجَفَتْه حيهلَةُ الإماءِ..
وهسَّةُ العبدِ الونيّةْ

ماذا أصابَ بني أبيكِ..
أما لَهُم فينا بقيَّةْ؟!

صمتاً فإنَّ العيَّ..
في بعضِ المواقفِ ، شاعريّةْ
وتحامقُ الضَعْفِ الهَضيمِ..
نهايةٌ في العَبْقريَّةْ!

لما رأيتُ الكذْبَ ..

سرُّ تفوُّقِ الفئةِ السريّةْ

ورأيتُ كيفَ الصدقُ يَذهَبُ مَنْ يقولُ به . .

ضحيّةْ

ونظرتُ أحلاسَ الوظائفِ . .

سادةً بينَ البَريّةْ

أيقنتُ أنَّ الألمعيَّةَ . .

في إزدراءِ الألمعيّةْ

وحَلَلْتُ عقلي من عِقالِ الهاجسينَ . .

بحُسْنِ نيّةْ

وسبرتُ أغوارَ السُّراةِ

وقِسْتُهُمْ بالسَرْسَريّةْ

فوجدتُ رهطَ الهبرِ قد

بزّ الأماثلَ أريحيّةْ

لا تنخدعْ بالبَنْطَلونِ . .

ولا تثقْ بجمالِ زيَّهْ
ما كلُّ زخرفةٍ إباءٌ..
وكلُّ خطبٍ عنجهيَّهْ

كم فارسٍ هو، في الحقيقةِ..
عند راتبه ، مطيَّهْ
ومُدَجَّجٍ قادَ السريَّةَ..
وهو قوَّادُ السريّهْ!

هات اسقني!..
ما للحياةِ، بغير عَرْبَدَةٍ، مَزيَّهْ
وأَسْبَأْ لنا .. إن الزقاقَ مباءَةُ الأُمم السَبيَّهْ
واشربْ على نمطي .. كما تأتمُّ بالشيخِ المعيّهْ

﴿ ٣٩ ﴾

يا هَبْرٌ لا بشرى ولا حُوَّارةْ
يطربُها عزفُكَ بالقيثارة!
يا هَبْرُ، حَسْبُ الأُمةِ الحمارةْ
حكومةٌ برَّاجةٌ بصَّارةْ
(. . .) فيها لولَبُ الوزارةْ

يا هبرُ استقلالُنا « الكرتوني »
أخرجَني ، كما ترى ، عَن ديني

فدُرْتُ بينَ الناسِ كالمجنونِ
أَسألُهم عَنهُ فما دلّوني
إلاّ على قعوارَ والخمّارةْ!

يا هبرُ ما في شُربِنا للكاسِ
بعد الُّلتيّا والَّتي من باسِ
واللهِ لولا كُوْكْسُ يا ابنَ الناسِ
ما لاحَ هذاكَ العراءُ الكاسي،
كما ترى.. لأعينِ النظّارةْ

﴿ ٤٠ ﴾

بالأمس.. قد ذرَّتْ
قرونُه .. الدّحنونْ
والتلعةُ افترَّتْ
عن عُشبِها المجنونْ
.. في غورنا الأرعنْ!

طوبى لساقينا
طوبى له طوبى

فأنَّهُ .. يا ناسْ
-وربِّ هذا الكاسْ-
لم يرتكب حُوْبا

سلمى ليالينا
في غورنا الأرعنْ!

﴿ ٤١ ﴾

متى يا حلوةَ النَظَراتِ والبَسَماتِ والإيماءِ والخَطْرِ
متى أُمْلي ـ على الآلامِ والحَدَثانِ والدَّهْرِ ـ
أَحاديثَ الهوى العُذْرِي
متى؟
مَن لي بأنْ أدري!

متى عن فتنةِ الكُحْلِ
وسِحْرِ الأعيُنِ النُجْلِ

وقد أَرْهَقْتِها ، يا حلوةَ النظراتِ ، تزويقا
فجاءتْ فوقَ ما يرجوهُ معنى الحُسْنِ تحقيقا
سيجلو الجؤذَرُ الوسنانُ . . للإنسانِ
سِرَّ النظرةِ الحلوةْ
وما فيها مِن النشوةْ
وما في النظرةِ الشزرَةِ والتقطيبِ . . من سحرِ

متى؟
يا ليتَني أدري

متى، باللّه،يا رجراجَةَ الكُفْلينِ . . يا وثّابةَ النَهْدِ
متى أعدو عَلى الوَجَناتِ . . ألثمُها وأستعدي
عَليها ـ إنْ هي امتقعتْ حياءً ـ حُمْرَةَ الخدِّ
متى، يا حلوةَ الخطراتِ يا ميّاسةَ القَدِّ
يحَلُّ مَحَلَّ هذا النأيِ والتشريدِ والبُعْدِ

لقاءٌ؟!

صَهٍ فَلنْ يُجدي
تساؤلُ عاثرِ الجدِّ
وقلْ لبلابلِ الصّدرِ
صهيْ حتى متى تَتَساءلينَ (بذاكَ)..
لا أدري!

لقد هلَّ الهلالُ ابنَ اثنتينِ.. فَمنْ رأى من بينكُم طيفَهْ
قُبيلَ تقدُّمِ السجّانِ يوصِدُ كوَّةَ الغُرْفَةْ
أجاءَ العيدُ وابتهجَ الصِّغارُ وأبهجوا قَصْفَهْ؟!
فهذا نافخٌ بوقاً وهذا ضاربٌ دَفَّهْ!
إذنْ لَعِبوا إذنْ طَرِبوا
إذنْ قَفَزوا، إذنْ وَثَبوا
كما يَثِبُ الغزالُ الغِرُّ وهو يطاردُ الخَشَفَةْ

« وكم زحلوقةٍ زُلٌّ
لها العينانِ تنهَلُّ »
يقومُ حيالَها طفلُ
ومنها حظُّهُ اللَّهفةْ
وكم تُحْفَةْ
وكمْ طُرْفَةْ
يمرُّ بها ويرمُقُها
ولَكنْ مُغْضَياً طَرْفَهْ
كما تُغضينَ إذ أرجوكِ من عَذْبِ اُللمى رَشْفَةْ

متى يا آيةَ الآياتِ في تصفيفكِ الشَعْرا
متى سيُتاحُ لي أن أستميحَ رجاءَكِ العُذْرا
غداةَ رغبتِ أنّ أبقى لديكِ دقيقةً أُخرى
ولكنّي، لفَرْطِ حماقتي، لم أستطعْ صَبْرا
وسارعتُ الخُطى سِرًّا

كأنّي مجرمٌ فرّا
ولا تَسلي إلى أينا
إلى حيثُ الخداعُ يعانقُ النكرانَ والغدرا

متى يا حلوةَ النظراتِ يا عربيدةَ الجيدِ
متى سيتاحُ لي تقبيلَ تلكَ الأعيُنِ السودِ؟!
متى سيُتَاحُ؟
لا أدري!

لقد عمَّ المساءُ ولفَّعَتْ آفاقَنا سُدُفَهْ
وحيَّانا
وجومٌ لَمْ يزلْ يعتادُنا من ليلةِ الوَقْفَةْ
ومزَّقَ صمتَنا قيدٌ تثاءبَ مُوقظاً رُسُفَهْ
و «وصفي» هَبَّ يُغدِقُ من «سجائرِهِ» بلا كُلْفَةْ

هلمَّ انظرْ ، بُنيّ ، من الثقوبِ، أليسَ للشَّعْرى
ولا للطائرِ النسريّ،
بما يبدو لعينكَ من سماءِ السجنِ ، من ذِكْرِ

دعِ الذكرى دعِ الذكرى
عليها لم أُطِقْ يا وَصْفِ، رغم تَجلُّدي ، صَبْرا
وإنّي واثقٌ من أنّها في هذه الساعةْ
ومن خلف الزُّجاجِ بأعينٍ وَكْفَاءَ دمَّاعةْ
إلى النجمِ العَبورِ ترقرقُ العينينِ في لهفةْ
عسى أن يلتقي طرفي هُناكَ بطرفِها صدفةْ!

ملاحظات

ملاحظات

حاولنا في هذه المختارات ، تجنّب إيراد الأبيات أو القصائد التي يتطلّب فهمها شروحات لغوية أو تاريخية. ومع ذلك، وجدنا أنّ نضع الملاحظات التالية. وقد انتقيناها من بين العديد من الملاحظات، إما للضرورة وإما للتأشير على الأجواء الخاصة لتجربة الشاعر. وقد أفدنا في إعداد هذه الملاحظات من الدكتور زياد الزعبي.

١. الشِرّت (بالعامية الأردنية) : الحذاء القديم البالي. وتكتظ قصائد (عرار،) عموماً، بالألفاظ العامية وأساليب الكلام المعتادة بين عامة الأردنيين. وقد رأينا أن نهمل شرحها هنا، فمعظمها ما يزال متداولاً ومفهوماً. أما الألفاظ الفصيحة الغريبة ـ ويمثل استخدامها ، عند عرار، أحد عيوب قصيدته ـ فمن الممكن فهمها من السياق أو تحرّي معناها من أحد القواميس.

٢. كُوكْس : هنري كوكس، المعتمد البريطاني لدى إمارة شرقي الأردن من سنة ١٩٢٤ إلى سنة ١٩٣٩. وكان جبّاراً في تطبيق النظام الكولونيالي (الاستعماري القديم) في البلاد، بالرغم من استقلالها الإسمي.

٣. عبود : الشيخ عبوّد النجّار . حجازي الأصل (توفي ١٩٤٨) من حاشية الأمير عبدالله بن الحسين. وقد نحت الشاعر من شخصيّة الشيخ عبود ، رمزاً أدبياً للتعصّب والإتجار بالدين ومداهنة الأغنياء والأقوياء. وهذا لا يعني أنّ الشيخ عبّود النجّار، الشخص الحقيقي ، كان مطابقاً للرمز الأدبي العراري.

٤. الهَبْر: صفة لكثير اللحم. واسمه محمد الفحل من النَوَر الأردنيين؛ وكان صديقاً للشاعر. وهو يمثّل ، في قصائده، رمزاً

أدبياً للنور وحياتهم الفانتازية الطليقة من جهة، وللمُضْطَهَدين بعامة، من جهة أخرى.

٥. فردريك بيك: القائد الإنكليزي للجيش العربي في الثلاثينات.

٦. أبو وصفي: كنية الشاعر. ووصفي (التل) نجله، سياسي أردني معروف. تولّى رئاسة الوزراء ثلاث مرّات. وكانت له سياسات إصلاحية. اغتيل العام ١٩٧١.

٧. كان عرار يهزأ بالحاح أعضاء الإدارة الأردنية، في الثلاثينات، على تقليد الإيتكيت الغربي. ويقول محقّق ديوان (عرار،) د. زياد الزعبي ما يلي: وجدتُ هذين البيتين على ظهر بطاقة دعوة موجهة للشاعر، هذا نصّها: «يتشرّف أمين العاصمة بدعوة سعادة مصطفى بك التل إلى حفلة الشاي التي ستقام في بناية الأمانة، يوم الخميس المصادف ١٧ تشرين الثاني ١٩٣٢م، في الساعة الرابعة و ٤٥ دقيقة زوالية بعد الظهر. ملحوظة : اللباس: بونجور للملكيين ورسمي للعسكريين» (انظر الزعبي، ص ٢٧٩).

٨. اسحق السمارة:: من الفحيص، صاحب إحدى الحانات في عمّان، وصديق الشاعر. سهرا، ذات ليلة من تشرين الثاني ١٩٣٨ ، معاً عند النور الذين ظنّوا «السمارة»، وزيراً أو ذا

منصب مهم كالوزير، فاحتفوا بالضيفين . وقد مازح «السمارة» عراراً بقصيدة منها قوله:

«أنت الوزير بصحبتي

أنعم بركن للوزارة!»

فردّ عليه «عرار» بهذه القصيدة.

٩. ممتاز السماوي: صنف من العرق كانت تنتجه معامل السماوي في الفحيص.

١٠. منصور بن قدّارة: مدير البنك العربي في عمّان (١٩٣٨).

١١. بلتكيان : هايك بلتكيان خيّاط الجيش العربي (١٩٣٨).

١٢. حميد وحمدان: الأول حميد الكباريتي من سكّان العقبة، والثاني صاحب المقهى المعروف في عمّان.

١٣. هديب وشوشان: الأول عبد أسود من أهالي العقبة، والثاني عبد الأمير عبدالله بن الحسين.

١٤. الكافر العموني: سعيد عمون، صديق الشاعر. وكان ، وقتذاك مقيماً في الرصيفة (العام ١٩٢٥).

١٥. هوبر : المستشار القضائي الإنكليزي في إمارة شرق الأردن (١٩٢٦-١٩٣١).

١٦. قعوار : (ميخائيل) صاحب مصنع للخمور في السلط.

١٧. طلال : الأمير فالملك طلال بن عبدالله . وكان في ولايته للعهد، محسوباً على المعارضة الأردنية؛ وكان صديقاً للشاعر.

١٨. شيلوخ : (شايلوك) الشخصية اليهودية المعروفة في مسرحية «تاجر البندقية» لشكسبير . أراد شايلوك أن يقتطع جزءاً من اللحم الحيّ لمديونه العاجز عن السداد.

١٩. صبري ومنكو وتوفيق بن قطّان: تجّار استفادوا، مع فئة مستحدثة من البورجوازيين ، من نظام «الكوتا» الذي سرى مفعوله أثناء الحرب العالمية الثانية. وهو نظام يحصل التاجر بمقتضاه على رخصة استيراد وإذن بتحويل العملة، على «الكوتا» ـ الحصة المخصّصة للأردن من النقد الأجنبي أو البضائع الأجنبية ـ وكان هذا النظام سبباً في الإثراء السريع الفاحش لفئة منتقاة سياسياً. ولدجر ، كان موظفاً في السفارة البريطانية بعمّان. وتحوّل لاحقاً إلى تاجر.

ناهض حتّر
مصطفى وهبي التل (عـرار)

مـأسـاة الأردنيين غيـر مـصـبـوغـة بالدّم. ربما! ولكنها مصبوغة بشقاءِ الوَلَهِ الجماعيِّ الممنوعِ ، بوطنٍ سرّيٍ، نعرفُه ويعرفُنا، نلوذُ به ويلوذُ بنا ، لا نملكُ إلاّ الأسرار. لكن ، لا تملكُنا الأسرارُ.. لا يملكُنا غيرُ العشقِ.. فيا أميرَ العاشقين، وأميرَ الأسرار جميعاً، وأميري .. أخافُ وقفتي هذه على ريحاناتِكَ، لآخذَ منها القطفاتِ الأكثرَ لَذْعاً وبَوْحاً وعذاباً، في نشيدٍ واحد متشابكِ الإيقاعاتِ والقوافي، يلخّصُ الرجفةَ من فَرْطِ الصحو!

أكلُّ هذا من أجل أن أفكَّ التباساً في مديح الأردن؟!

أكلُّ هذا من أجلِ أن نقولَ إنَّ مصطفى التل اكتشفَ وطناً عذباً كالأحلام.. وتركنا وَلْهَانينَ.. بلا توبةٍ أو رجوعٍ أو رجاء!؟

٢٠٠٢

المركزية